أم سلام

عيسى حموتي

الكتاب : أم سلام (رواية)

المؤلف : عيسى حموتي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٣

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٣٩٢٩

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 125 - 3

الناشر

شمس للنشر والإعلام

القاهرة : ٨٠٥٣ ش الجامعة الحديثة. الهضبة الوسطى. المقطم

ت/فاكس: ٠٢٢٧٧٢٧٠٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

شمس
للنشر والإعلام

أم سلام

رواية

عيسى حموتي

تقديم

"أم سلام"... رواية للروائي المغربي عيسى حموتي... أبدع فيها وتفنن.. يأخذنا فيها في رحلة عجائبية من خلال بوح، ومناجاة جنين.. نسافر عبر التكوين، والتأصل والوجود.. مكتشفين في رحلتنا هذه وقائع، وحقائق كثيرة.

إنها كتابة إيقاعية، تعتمد تيار الوعي كحامل لها.. تتأرجح بين الارتداد، والحاضر، والاستشراف.

إن كتابة الأستاذ عيسى حموتي طبعتنا بأسلوبها الرائع، وفنيتها التي تنقلنا من واقعنا إلى العالم الخيالي للرواية، وجماليتها.. تجعلنا نبحر في عالمها الشبقي، الساحري، والذي يقربنا من الواقع دون أن نعلم بهذا الاقتراب.

وقوة عيسى حموتي الإبداعية، تكمن في قدرته على نقلنا فكرًا، وخيالاً؛ إلى أماكن متخيلة، لا تخلو من واقعية، وتدخل في المناجاة والحديث النفسي...

ومن خلال هذا الحديث، والمشاهد السردية، والوصفية المرافقة له؛ نكتشف مجموعة من القضايا والوقائع.. والتي تؤلم بعضها النفس لما تصوره من بشاعة إنسانية.. وهذا في مضمونه نقد للمجتمع وسلوكاته، وقيمه المتفسخة..

ومن ثمة يتوسل المبدع عيسى حموتي الرواية كأداة للفضح، والنقد والانتقاد، والتعرية... لكثير من سلوكات المجتمع وإنسانه.

إن عيسى حموتي يجعلنا قاسم الشخصية الروائية معيشها اليومي، وصراعها ضد كل ما يقلق النفس...

إن كتابة عيسى حموتي والمتمثلة في روايته (أم سلام).. تجعلنا نقف على مرجعياته الحداثية في كتابة الرواية.. ومن خلالها نقف على مقولة (أن يكون الكاتب نفسه).

صحيح، أن عيسى حموتي في روايته يشخص شخصيته وثقافته، مكانه وزمانه.. وهذا كله هو جزء من تجربته الروائية؛ خاصة إذا ما اعتبرناها تجربة إنسانية لها وظيفتها، ورسالتها.

رواية (أم سلام) تغري بالقراءة، لما تحمله من دلالات وإحالات توفر للقارئ متعة القراءة ولذتها.. وسيكون إبحار القارئ في فصولها متعة جميلة.. وسفرًا شيقًا.

محمد داني

(١)

شهادة سلام

روحٌ أنا بلا جسد، أنتظر أن تُتاح لي فرصة تقمص جسد لا يزال قيد العدم، قد ألبس جسدًا وأصير كائنًا بشريًا بروحه وجسده، وجودي يتوقف على علاقة جسدية؛ بطلاها: أبو سلام وأم سلام؛ لقبان لن تتداولهما الشفاه إلا إذا تجسدتُ بشرًا وبطريقة طبيعية، أمرٌ بكل مراحل التناسل بدءًا بالتخصيب ومرورًا بالانتجاع بالرحم لتسعة أشهر قبل أن أخرج إلى الحياة. قد أكون يومًا أو لا أكون أبدًا، قد أكون من جنس الذكور، كما قد أكون من بنات حواء، ما زلتُ حلمًا، نعم أنا حلم والدين لم يرتبطا بعد بميثاق شرعي، يعيشان لحد الآن علاقة قوية سرية، ويحرصان على ألا أشرف إلا مكرمًا(ةً) معززًا(ةً)؛ الشيء الذي يتعذر معه مجيئي اليوم إلى عالمهما، رغم رغبتي الجامحة.

صنعاني من خياليهما، ركباني عضوًا بعد عضو، كثيرًا ما اختلفا حول شكل أو لون. في اجتماعهما يرسم لي أحدهما صورة، قد يتفق معه الطرف الثاني على كل تفاصيلها وقد يختلف، وتتدخل الممحاة إذا كان التعديل بسيطًا، وقد يتطلب الأمر تغيير لون أو قصة شعر، وأحيانًا كان لابد من الخضوع

لعملية جراحية دقيقة. أو ينحتان لي تمثالاً، يختلفان حول جنسي، ولم أكن أرضى أن يمرا في حديثهما إلى أعضاء أخرى وأنا بلا جنس. أو بعبارة أصح، كانت مَن، مِنْ المفروض أن تحملني تسعة أشهر تريدني أنثى. كانت تقول:" أريدكِ أنثى، إذا لم تكوني كذلك، لن أهتم بكِ، سأوكل مهمة الاعتناء بكِ لوالدك"، وهي تمرر يدها على بطنها الضامرة. أما هو فكان لا يتعصب لرغبته في أن أكون من يحمل اسم العائلة وأكون حلقة من سلسلتها أربط الأسلاف باللاحقين، فأضمن استمرارية السلالة. وكان يتظاهر بالموافقة على تعصبها إلا إذا اعتقدت أن رغبتها انتصرت على رغبته.

يتجادلان حول شكل العينين ولونهما، تحلم بالعينين الزرقاوين. أما هو فيجد في حلمها سذاجة فلا أحد منهما وليس من بين سابقيهم من عائلتيهما من تمتع بهذه الصفة. إذا لم تكن بذلك تتعمد إثارة غضبه، لأن أكثر ما كان يمقته عندها هو التظاهر بالغباء. فلطالما أحبت إغضابه، تنظر إليه وهو يضج ويصرخ وهي هادئة، تنظر إليه وكأنها شاردة.

يعدلان صورتي من حين لآخر، يضيفان أو ينقصان، يلونان، يزيدان شيئًا، يمسحانه، يستبدلانه بآخر حسب مزاجهما في جلساتهما. وكنتُ آخذ أشكالاً وألوانًا، تبعًا لمزاجهما، حتى لم أستطع أن أكون لنفسي صورة واضحة لذاتي، ومع ذلك كنتُ

استمتع كثيرًا لما تنضاف إلى صورتي لمسة حسن ساحرة، أو صفة نباهة. ثم لا ألبث أن أعود إلى واقعي، فأراني، لا زلتُ لم أتجسد، ولن يتأتى هذا إلا إذا اجتمعا تحت ظل سقف واحد، وبمعنى أوضح لن أكون أبدًا إذا قدر أن حدث ما يحول دون ارتباطهما الشرعي وحتى إذا ارتبط أبو سلام بغير أم سلام أو ارتبطت أم سلام بغير أبي سلام، لن يرى لقباهما النور، سيظلان حلمًا ما بقيت أنا حلمًا ولم تكتب لي حياة.

لا أعلم شيئًا بعيدًا عن جلستهما الحميمة، كل ما يمكنني معرفته من أمريهما لا يتعدى ما يدور بينهما في الجلسات الحميمية من قول أو فعل أتحين فرصة سانحة تخرجني للحياة. قد أحضر معهما في حالة تحدثهما في شأني عبر الهاتف. أما إذا تحدثا في موضوع يخص غيري فأتبخر. ولذلك لا يمكنني الحديث في غير شؤوني. كنتُ في البداية أصغي لحوارهما دون أن أفقه شيئًا، مرت أيام وشهور وأنا لا أستوعب ما يحصل بينهما، كنت ألمس في مَن، مِن المحتمل أن تكون، أمي في المستقبل؛ رغم ضيق فهمي؛ أنانية، إذ كانت ترغمه على أن يعدها أن تكون سلام أنثى، يطاوعها رغم كونه المسؤول الأول بغير إرادته عن الجنس. وألا تكون إلا من صلبهما معًا. ويمنع على كل واحد منهما إن فرَّقت بينهما الظروف وأنجب مع الغير أن يسمح لنفسه أن يسمي مولوده "سلام". لم أكن أعرف كيف أنضم، فأشاركهما الحديث ما دام الأمر يتعلق بي بالدرجة الأولى،

يعيشان تجربة فريدة من نوعها. عايشت هذه التجربة لحظة لحظة، سمعت كل كلمة صدرت من هذا أو تلك، رأيت كل حركة صدرت عن ذي أو ذاك، حتى استبطأت الزمان في لمِّ شملهما لأعيش في كنفهما، بين أحضانهما المترعة بالحب.

كم كان حوارهما شيقًا، كان يشدني كما لم تشدني يومًا حكايات عالمنا نحن الأرواح، المرتقبة فرصة احتلال جسد حتى يكتب لها النزول إلى عالم البشر، ولا كما تشد بني البشر حكايات ليلى والمجنون كما تحكيها العجائز لصغار بني الإنسان، ولا كما أخرجت على أيدي المبدعين صورًا متحركة ولا حتى أفلامًا سينمائية (كانت هذه الأسماء كقيس وليلى، وروميو وجولييت و... والحكايات الغرامية المرتبطة بسيرهم تتردد كثيرًا في حديثهما)، حسبي أن أقول هو واقع يسمو فوق كل خيال.

سمعت أم سلام في معرض الحديث عن مجيئي إلى هذا العالم مسهبة في الكلام عن أيام التخضيب:

" لاستقبال سلام علينا أن نبدأ بإعداد كل ما يمكن أن يساعدنا على تأريخ مجيئها، نستغل كل الإمكانيات المتوفرة والسانحة المادية منه والمعنوية والتكنولوجية، سأشرع منذ اليوم في حضور دروس ترتبط بالمجال السمعي-البصري في شقه التقني استعدادًا لتأريخ حياة هذا الكائن الذي سيحتل بطني، ويذيقني طعم الإحساس بالأمومة، وبعد تحصيلي تقنيات التصوير، سأثبت عدة كاميرات في الغرفة في الأعلى وفي الأسفل في

الجوانب، بحيث ترصد كل حركة صغيرة كانت أو كبيرة. مع بداية ثاني أسبوع من كل دورة نشعل أضواء الأستوديو، إلى أن يحصل المطلوب... ولما تكبر سلام وتنضج أسمح لها بمشاهدة الشريط ".

لم يوافقها الرأي وطلب منها أن تعدل عن الفكرة وخاصة الجزء المتعلق بمشاهدة سلام سواءً أكان ذكرًا أو كان أنثى، لشيء بسيط، إذ لا تسمح له الأعراف التي نشأ عليها ولا الدين بذلك، إذ كيف يعقل أن يرى الأبناء الوالدين في مثل تلك الأوضاع. يقول ذلك متأكدًا من أن لا أحد غير الخالق يراهما، يجهل بل يجهلان معًا أنهما خلقاني بمجرد أن حلما بمجيئي. أرافقهما في كل جلسة حميمية، أو لست في صلبيهما ؟! وهذه لحظات أقترحها شريطة أن يبقي المصدر سرًّا (.....) (معذرة لقد وصلك الفيديو فارغًا، نسيت تحميله) ما دام قد تعذر الأمر، حاول أن تتخيل مدى حسن وبهاء ما رأيت أنا وما سمعت، بالطبع إذا كنت قد استطعت أن...

وأبو سلام يحذر أم سلام، وهي تبدي إصرار مَنْ تعتزم أجرأة الحدث في التو. وتدافع عن فكرتها بمنطق متحرر. ترى أن لا ضير ما دامت الفتاة ستكون راشدة، " أم تحتاج أيها الأب المتحجر إلى درس في مفهوم الراشد؟". كنتُ أنا أستفيد من الدرس، وعاهدت نفسي أن أنقل من علاقتهما كل ما يفيد من

تجربة تساعد على تنمية هذا الجانب من الحياة عند من يفتقرون إليه. مع المحافظة طبعًا على مسافة الاحترام؛ احترام الوالدين.

كنتُ أكبر وأصغر لا أخضع لمنطق السن، فكلما شاءت والدتي أن تراني كبيرة؛ كبرت.. ومتى رأتني صغيرة؛ صغرت، أحيانًا أجدني رضيعًا أنافس أحدهم، وأخرى عروسًا أهتم لأمر أمي العجوز التي ظلت وحيدة بعد رحيل والدي، وترفض تزويجي، يُلاحظ من خلال حديثي أني أتكلم بضمير المؤنث، وهذا نتيجة تأثير والدتي علي، فهي لا تريدني إلا أنثى.

لما كانت ترسم توقعها لنوع حياتي خلال مراهقتي وشبابي، أرهف سمعي إلى أقصى حد. ترميني على بساط الحرية، أعب من طيبات الحياة دون قيد أو شرط، طليقة طلاقة الهواء. محمولة على رفيف الفراش، أسبح في فضاءات بلا حدود. وعوالم شتى قيد يدي.

أما والدي فلم يكن يولي مسألة الجنس أي اهتمام ما دمت في اعتباره نتيجة ثمرة حبه لتوأم روحه، ما كان يهمه هو أن ينجب ممن أحب إلى درجة الجنون، ذكرًا كنت أم أنثى، المهم عنده هو أن يحسن إعدادي لمواجهة الحياة، مواجهة العقلاء الذين يحسنون الاختيار، ويتحملون نتائج اختياراتهم. ما كان يرغب فيه هو مجيئي، كان يفكر في مشروع برنامج تربوي

أخضع له بعد مجيئي إلى هذا العالم. وكان يخشى أن لا تسعف الظروف في توفير الشروط، وقد أبقى حلمًا إلى الأبد. أما أنا فكنتُ أخشى أن أخذل أحدهما، بحيث لا أستطيع تحقيق التكامل بين حلميهما.

أنا وحدي من كنت أحضر كل العروض حتى حفظتها عن ظهر قلب، ولا أظن أن مشهدًا واحدًا قد فاتني ما دام وجودي أو عدم وجودي يتوقف على هذه العروض. كنتُ في بحر كل لقاء لهما محمولاً(ةً) على بساط أخضر، أتهادى، وعقب كل لقاء أستاء، وآمل أن يكتب لي ما أرغب فيه خلال عرض لاحق. وتوالت العروض وتوالت معها خيبة الأمل. ولا حول ولا قوة لي. لا أملك أية وسيلة للضغط. أعدم الوسيلة لإشعارهما بمعاناتي، كل ما أملكه هو أن أسمع وأبصر، لا قدرة لي على المساومة أو الإفشاء. حتى أن لا أبقى وفيًا(ةً) للعهد الذي سبق أن قطعته على نفسي والمرتبط بعدم تجاوز الخطوط الحمراء في ما يتعلق بحياة الأبوين الحميمة أمر مستحيل مادام إفشاء السر وعدم حفظه لا حديث عنه إلا إذا صرت إنسانًا يدب على الأرض. وسأظل أنتظر أن يكتب لي الخلق. جعلاني أحلم، لم يبق لي إلا أن أصبر، وفي الوقت ذاته كانت تخوفاتي من أن أصير إلى العدم تكبر عقب كل لقاء عقيم.

كانت أم سلام، كلها إطراء وثناء عليه، كان إعجابها به كبيرًا. كان متفانيًا في عمله، طيلة سنين عديدة لم يسمح لنفسه بالتخلف عن عمله، ولا حتى بالتأخر، كما لم يتبادر لذهنه أن يتمارض هروبًا من العمل يؤدي واجبه بالشكل الذي يرضي كل من يتعامل معهم، لا يرجو جزاءً ولا شكرًا. هكذا كانت تقتفي أثره، وكلما علمت من أخبار جده تعلقت به أكثر فأكثر، واشتدت رغبتها في التقرب منه، وهو في غفلة مما ترسمه حوله من خطط على أمل أن توقعه في حبائلها.

كانت تحصي عليه قمصانه انتبهت لألوانه المفضلة من خلال لباسه، شدَّ اهتمامها طريقة تنسيقه للألوان حتى في الأشياء البسيطة، كان كل شيء فيه يلهب قلبها، حتى غدت تهتم بحركاته وسكناته، تعلم بأوقات مواعيد عمله غير المنتظمة داخل أيام الأسبوع، وترصد وصوله، وتودعه في سرها وعلى مضض وهو يغادر. لا تستطيع أن تكتم إحساسها بل وجدت نفسها في حاجة للبوح رغم أن وضعها لا يسمح بأن يعلم أي كان بمشاعرها. رددت اسمه بلا شعور منها مرات، في معرض حديثها مع الصديقات أو الزميلات، خاصة إذا كان الموضوع يتعلق بالهندام أو "الشياكة" وحتى الموضة، كان يحلو لها أن تعبر عن إعجابها باللغة الفرنسية (élégant ,tiré à quatre épingles). بل بلغ بها الإعجاب، أن أصبحت تُقحم صفاته في حديثها حتى إن لم تدع أية مناسبة إلى ذلك.

لا هي اندفعت متهورة، ولا هو ألقى بالاً. إلى أن لاحظ يومًا أنها تتواجد في مقر عمله في مواعيد عملها؛ علمًا أنهما يعملان في مؤسستين وإدارتين وقسمين مختلفين، لا علاقة لوظيفتها المتصلة بلجنة القراءة بوظيفته كرئيس مجلس إدارة. كانت تتعمد تواجدها في طريقه، ثم لاحظ الحُمرة التي تعلو وجهها كلما التقى بصراهما وتبادلا التحية، مرَّت أيام تعمد خلالها عدم الاهتمام لأمرها، فأصبحت تدنو منه أكثر وتضاعف من تواجدها صدفة على طريقه... أخيرًا ابتسم لها.

توقفت عند هذه اللحظة أثناء حديثهما الحميمي لتعترف بما اعتراها حينذاك: " سأكون كاذبة إذا ادعيت العقل أو التركيز أو ضبط النفس، لا شيء من ذلك إطلاقًا، طلَّقت عقلي، ودَّعت اتزاني، لم أعِ نهاري، لم أذكر شيئًا غير فرحة عارمة اجتاحتني، حملتني إلى حيث لا أعرف، ولا أذكر أني عشت مثل هذه الحالة في ماضي أيامي، أحلم ماشية في الطريق، مستلقية على السرير، أشعر بحمى تجتاح جسمي مع انشراح عظيم يثلج الصدر... أعترف أيضًا؛ وإن كنتَ لم تلاحظ؛ أني أصبحت كثيرة الاعتناء بملامحي بشكل طبيعي، بعيدًا عن مساحيق التجميل بسبب كوني أجمل من أن أحتاج لأي مسحوق. قد لا يصدقني إذا سمع أحد ما أدعيه، أقول "فأنا لا أفسد سحر عيني بالكحل، أما هندامي فكنت أختار وأنتقي ما أجده مثيرًا لاهتمامك من ناحية، ومن أخرى ما أعكس عليه إشراق حُسني".

بعد هذه الابتسامة التي كانت بمثابة الضوء الأخضر الذي فسح المجال طويلاً، أخذت تقتحم عليه وحدته، وتنير حياته، وهو بدوره وجد من اللائق أن يعبِّر لها عن شعوره كما عاشه حينذاك.

• • • •

(٢)

شهادة المحمول

تعددت وجوهي ولا وجه لي، تعددت أسمائي، ولا واحدًا يدل عليَّ، مسمى ولا اسم يدل على وظائفي لا أدري لِمَ لمْ أسم أيضًا بالمصور أو الكاميرا أو حتى "الموشار" أنا متعدد الخدمات، لم لا يتطور اسمي كلما تطورت خدماتي، لِمَ لم يبحث لي عن اسم يدل على كل وظائفي؟ لا يهم، سأكون ممتنًا إذا حملت اسم وظيفتي الرئيسية. ولما كنت كثير الكلام ورهن إشارة كل من يستخدمني، أصبحت أفضل أكثر المكالمات العاطفية إلى أن أضحت اختصاصي. وكنت أميل أكثر لعشيقين بعينهما.

عرفت أم سلام، وأبا سلام قبل أن يصنعا حلمهما سلام، كان يسميان على التوالي "سلاف" و"بدر"، خدمتهما مدة طويلة، كانا في بداية الأمر لا يجرؤان في حديثهما على الخوض في التعبير عن ذاتيهما، يتحدثان في أمور ذات طابع عام، بعيدًا عما يرغبان فيه، وإن كنت عديم الإحساس ألاحظ أنهما يثيران هذا النوع من المواضيع، كمن يتحدث منتصرًا لفكرة لا يؤمن بها. وكل منهما يتحين فرصة قد تلوح من الآخر، تكون له بمثابة

الضوء الأخضر، يسمح له بانطلاقة تسعفه في التعبير عن ذاته. قربت المسافات بينهما، مواعيد في أماكن عامة، وأخرى لتناول وجبة، أو جولة إلى إحدى الضواحي، وغالبًا ما تكون الوجهة شاطئ البحر حيث أطباق السمك الطري. سهلت عليهما الكثير من الأمور، سعيت بينهما أحمل بإخلاص مشاعر هذه إلى ذاك وبأمانة أحاسيس هذا إلى تلك، أرتب مواعيدهما، انقل غضبهما، انفعالاتهما، أنفاسهما شهيقًا وزفيرًا، رغباتهما تجاه بعضهما، أحاتهما، أفاتهما، تذمرهما من بعضهما... دون كلل أو ملل، وقليلاً ما كنت أخذلهما، وإذا فعلت؛ فلأسباب تخرج عن نطاق قدراتي المتواضعة حين تضعف قواي أو تنضب طاقتي، وقلَّ وندر أن أخذل أم سلام، لمَّا تُغضب أبا سلام وتخرجه عن اتزانه المعهود، يخنق أنفاسي. وغالبًا ما كنت أخذل أبا سلام، لما يغضبها وتنتابها هستيريا وجنون مدغمين تحولني إلى شظايا بعد انفجاري على جدار أو طوار أو ما شابه ذلك.

كانت مكالماتهما تطول، فاقت في بعض الأحيان الساعتين كنت أحيانًا أحسُّ ببعض الغيرة، وفي خضم متعتهما أتعمد قطع المكالمة، ولا أستجيب لربط الخط إلا إذا خفت على مصيري. كنت أسمر معهما، وكان يحلو لهما بعد صلاة العشاء. كانت أم سلام لا تتعب وما كرهت أن تستمر على الحال طيلة الليل، أما هو فكان يرفض لأن ذلك كان يوقعه في اجترار مستهلك الكلام الذي يؤدي أحيانًا إلى نوع من المناوشات هما في غنى عنها:

- ما بك؟ لم أنتَ في عجلة من أمرك؟

- ألا ترين أن بعد يوم من العمل، وبعد مكالمة طويلة على المرء أن يستريح؟

- هل يعني هذا أن حديثي متعب؟

- رجاء لا تقوليني ما لم يتبادر إلى الذهن، تصبحين على خير. وتقفل دون أن تتمنى له ليلة سعيدة.

كان، يغتاظ، ويحجم عن الكلام لكي لا يقع في المحظور.

رغم ما لمستُه فيها من عناد ومن أنانية في علاقتها العاطفية به، تحبه كما لم تحب أحدًا في حياتها وكان لمَّا يسألها عن مقدار حبها له، تستخف بالسؤال:

"الحب عندي لا يخضع للقياس، لأن كل ما يُقاس محدود وكل محدود له ما يفوقه أو يكبره، وهذا النوع من الحب يفنى. حبي يكسر حدود المقاييس، يتعدى الحواجز، يقفز على المتعارف عليه، يخترق شرنقة الحب بالمفاهيم التراثية ليسبح في عوالم من صنع السمو".

حب من وحي أحلامها، تريده أخلد من حب بطلات الأساطير، أسمى مِنْ حب مَن حظينَّ بحب الفرسان التقليديين، ووقعنَّ تحت شفقة الأمراء والسلاطين. الحب عالم المثل، لا قيمة للماديات في حبها، تؤمن بقيم الإخلاص والوفاء واحترام المواعيد وبدقة لا نظير لها. إلا أن غيرتها كانت تتعدى كل

الحدود، تغار عليه من ظلها، لا تتصور أن تمر لحظة من حياتها دون أن تراه أو تكلمه. ما أبلغ تعبيرها ولسان حالها يقول، وبصرها لا يفارق عينيه:

- أقايض أسبوعًا من عمري مقابل أن أقضي ليلة وأنا ساهرة، أنظر إليك، أتفحص قسمات وجهك وأنت نائم، أرقب عينيك لأكون أول ما تنفتحان عليه.
- لماذا تريِّدين حرماني أسبوعًا كاملاً؟، أتريدين أن أحرم من ست مائة وأربعة آلاف وثمان مائة نظرة إلى سهوم عينيك؟ ما هذه الحسابات الخاطئة أيتها الأنانية؟

إذا طلبتْ رؤيته فجأة ولم يكن في إمكانه تلبية النداء، طار صوابها لتقع فريسة لهواجس شيطانية. أما إذا طلبته ولم يرد على مكالمتها، وحتى إذا ردَّ مع بعض التأخر، فقد أكون أنا أول من يؤدي باهظ الثمن؛ أقل جزاء كنت أناله هو كتم أنفاسي، أما هو فتفتح له محضر تحقيق دقيق مهما كانت أعذاره ومهما كانت أجوبته:

- أنا آخر من تفكر فيها، لا تلتفت إلي إلا إذا أرضيت كل من يحيطون بك.
- رجاء لا تصرخي، لا يليق أن تضجي بهذه ا لطريقة
- ألا يمكنك أن تنصرف لحظة عن عملك وترد عن مكالمتي؟

- بلى يمكن، لكنك لا تكتفين بدقيقة، إذا حدث أن قلت لكِ: إلى اللقاء، سمعت عظام هاتفك تنكسر على الأرض.
- مهما كان عليك أن تكلمني، لو كنت تفكر لحظة في ما يدفعني لطلبك.
- أحفظ الأسطوانة: لا أحد يحبني كما تحبينني، أو يخاف علي كما تخافين...

كمن انحنى في انتظار مرور العاصفة يسمع ولا يصغي، يجدها تثير زوبعة في فنجان، وفي نفس الوقت يجد صراخها ظاهرة صحية بالنسبة لعلاقتهما، رغم أنه لا يتفق بتاتًا على جوانب كثيرة من طريقة حبها له، بقدر ما يحاول امتصاص غضبها عن طريق تصنع الهدوء والتظاهر بالحلم، تزداد غليانًا:

- ما هذه البرودة في التعامل معي؟ لماذا تتعمد إثارة أعصابي؟

وسرعان ما يعال صبره، فيفقد اتزانه، وتنتفخ أوداجه نتيجة غليان الدم في عروقه، ويخرج عن لياقته، فيرد:

- ما هذه الأنانية؟ ما هذا التفكير الساذج؟ ما كنت أدري أن آفاقك ضيقة إلى هذا الحد، لا تفكرين إلا في شخصك.
- أهكذا تراني؟ ألم أعد امرأة متحررة؟ ألم تنعتني بالتحضر؟ ألم أعد ممن يسبقن زمنهن؟
- أنتِ من تعبرين عن مستواكِ الحقيقي من خلال تصرفاتك هذه. لذا بات من الضروري أن تفكري في إعادة التفكير في

تصرفاتك الرعناء. لأن ما تقومين به قد يحرق أزهار جنتنا التي طالما تعهدناها ولا تزال في حاجة إلى رعاية.

وهي صامتة لا تنبس ببنت شفة، وكأنها كانت في حاجة إلى هذا، أو كانت هذا ما تطلبه أو تريد سماعه حتى تشبع رغبتها وتنهي غبينتها.

أما أنا فلا أحفل حتى أجدني أجزاءً وقطعًا متناثرة يستحيل جمعها وتجميعها مرة أخرى.

اعتدتُ على هذي الحال كما اعتاد"السردوك" التونسي على الانتفاض والصياح، في محاولة النجاة بروحه لما يشتد العراك بين شخصين من "الدوار" دون جدوى. ويعلم الله كم من مرة يسمع أبو سلام "يتعذر الآن الاتصال بمخاطبكم، المرجو إعادة النداء لاحقًا" ليلتفت إلى مصيري. وقد تمضي أيام طوال، أو ساعات، أو لحظات فقط قبل أن يسمع صوتها وقد انتابه ضعف وبحة تبطنان في رقة النسيم ندمها المنبعث من الأعماق، وكأنها تذكر بما تعاهدا عليه تلافيًا لكل ما قد يؤدي إلى القطيعة "إذا اشتد الخصام وتعذر الاتصال لأي سبب فليكن اللقاء تلقائيًا في موعدنا الثابت زمانًا ومكانًا". بقدر ما تبدو قطعة من جحيم، تبدو كذلك أرق من رقة النسيم.. لله في خلقه شؤون تثور كإعصار لكن دون أن تحدث خسارة تذكر.

كثيرًا ما كانت أم سلام تحلم بحياتها تحت سقف بيت حبيبها "بالوضوح" وما فاتحته في الموضوع ولا أشارت إليه ولا حتى لمحت. تتوقف عن العمل تتفرغ له كليًا، فتراه لا يخرج من البيت إلى العمل إلا بخمس دقائق قبل الموعد مجرد الزمن الكافي لقطع المسافة القصيرة الفاصلة بين البيت ومقر العمل، هذا في حالة انشغالها عنه في أمور مهمة، وإلا لا شيء يشغلها عن حبيبها: توصله لا تريد أن تضيع منها لحظة بعيدًا عن أبي سلام، لا تنتظر عودته وهي قابعة بالبيت ترفع بصرها إلى الساعة الحائطية من لحظة إلى أخرى، بل يجدها في انتظاره أمام باب المؤسسة على أحر من الجمر لتندفع في اتجاهه كاندفاع رضيع نحو أمه، ستستقيل من عملها لتتفرغ خالصًا لحبها، لن تملَّ أبدًا وإذا حدث أن أحست؛ وهذا ما لن يحدث؛ بالفراغ ستعرف كيف تتخلص منه،ستتغلب عليه،ستفسح المجال لسلام، ستغازل بطنها وهي تمتلئ، ستقضي غياب حبيبها في محادثة سلام، تصف لها والدها، تصف حبها له، تناغيها، تستلذ وقع ركلاتها في بطنها، ويتراءى حبيبها يحاول مد يده، فتمنعه لأن سلام ستستجيب له عن طريق الركل وسيتألم لتألمها، ويعز عليها أن ترى حبيبها يتوجع. كما يعز عليها انشغالها عنه بالحمل والولادة، لولا شغفها بالأمومة شغفها بحبيبها لطلبت منه أن يجدا في البحث عن رحم للكراء. فمكانة أبي سلام في قلبها لا يمكن حتى لسلام أن تحتلها فهو محور حياتها وقطب

الرحى فيها وأفظع ما تخشاه هو أن يتخلى عنها يومًا. كلها أشواق، كلها غيرة "... ولكن ما هذه الحمرة التي تعلو خدك ؟ من خدشك؟ صنع ظفر !ظفر أنثى !" تتذكر هذه الحادثة التي قاطعت على إثرها حبيبها أسبوعًا كاملاً، وزادها هو ثلاثة أيام أخرى عقابًا لها على رعونتها.

كانا يقرآن الخطابات الصباحية التي يتبادلانها يوميًا عبر رسائل قصيرة وكنت استحسن أسلوب أبي سلام الذي يفيض عاطفة ويرقى صورة، يصدر عن تلقائية كبيرة، ولا أستبعد أن هذا من العوامل التي جعلت أم سلام تثق بنفسها إلى حد الغرور أحيانًا كانت عبارات غزلية رقيقة من النوع الذي يرفع بنات حواء فوق السحاب.

- يا رقة النسيم، صباح... أضربت عيني عن الإغماض طيلة الليل تطالب برؤية بهائك.

منذ أن أُقحمت أجهزة عدة في كياني، تعددت مهامي إلى جانب مهمتي الرئيسية، أؤدي وظيفة ساعي البريد وظيفة الحمام الزاجل مع فارق في السرعة، والاختصار والإيجاز. آلة التصوير، وكاميرا، آلة تسجيل. لم أكن في بداية عهدي بهما قد أدمجت في الخدمة الأخيرة، إلى أن حصل أبو سلام عني، وكنت أسمى حينها "سامسونج D840" أعجبا كثيرًا بجودة "الفيديو" كان يصورها لوحدها، يتفرجان، يعلقان، ثم تسحبني من بين

يديه لتمسح الفيديو. ولما كانت ترغب في المشاهدة على انفراد في البيت طلبت منه أن يوفرني لها من نفس النوع مجهزًا بكاميرا. وكنت سامسونج نفسه. كانت تتفنن في تصوير الفيديوهات، لا كمصورة محايدة بل كقوة فاعلة رئيسية في المشهد، كما كانت تتقن المشاهدة، بسرعة فائقة تلاحظ مكامن الجودة أو الضعف فيه. وهكذا لم تكن تكتفي بعيش المشهد كما لعبت أطواره في الواقع، بل تعيشه عن طريق المشاهدة. وكانت تلح على أن يشاهده معها في نفس الوقت، ولهذا الغرض كانت تبعثه إلى هاتفه عن طريق "بلوتوث" ولما تطلبه في المكالمة الليلية التي أصبحت سُنة، يتحدثان وهما يتفرجان على شريطهما ومع نهاية المكالمة تطلب منه مسح الفيديو، خشية أن أضيع منه أو أقع بين أيدي العارفين بخبايا هذه الأجهزة ممن لهم خبرتهم في فك الشفرات، ويكون لهم مثل هذا الفيديو، وسيلة لجني المال، ويكون لهم شيوع الفيديو بين الناس فضيحة لهما. قد سُرقت منها مرة وهي في خضم مكالمة عاطفية مع "بدر" لحسن الحظ لم أكن أحوي صورًا ولا فيديو.

أما الموسيقى، فلم يكن أبو سلام يستعملني للاستماع، كما كانت تفعل، كان يستعيض عني بقارئ CD إن في البيت أو في السيارة.

• • • •

(٣)

كانا في لقاءاتهما يثيران من حين لآخر موضوعًا يخوضان فيه، ولما كانت الساحة العربية تعيش مخاض الثورة، لم يكن يمر لهما لقاء دون أن يذكر أحدهما الآخر بما تُدوول من أخبار وما نشر من صور إن على شاشة التلفزيون أو على الإنترنيت، كفرار صاحب تونس فرار ثعلب مخلفًا وراءه جحره وقد كنز فيه خيرات البلاد وثروات الوطن وكل ما نهبه من المال العام، وأصحابه الذين تحول من عرق جبينهم ومن بطن أرضهم، أصبحت لقمة العيش بالنسبة لهم ترفًا.

لقد شاهدت وسمعت في ريبورتاج إخباري مباشر أجراه المبعوث الصحافي في الشارع مع الهاجرين التونسيين في الديار البلجيكية، وكان من بين ما شد اهتمامي ما قالته إحدى المغتربات في شأن استقبال الملك السعودي للثعلب التونسي: أن الحج الذي يرعاه من يستقبل اللصوص لم تعد بقاعه مقدسة بل أصبحت مدنسة، ويبقى حرامًا على المسلم الحق أن يطأ تلك الأرض حتى تطهر، وبـ"جافيل" وسيتم ذلك في القريب العاجل بعون الله.

- لا بد أنها ممن نلن حظهن من المعرفة.

- أبدًا لقد أدلت للكاميرا بسيرتها، عاملة بسيطة بأحد معامل إنتاج بعض مواد التنظيف.

علق بدر قائلاً:

- يبدو أن الاشتغال في مواد التنظيف المادي، يؤثر على نظافة الروح، فالمرء إذا جاور حَدادًا نال حظه من السخام، وإذا جاور عطارًا نال حظه من طيب العطر.

- أيعني هذا أن هذا النوع من الحكام قضوا حياتهم بين القمامات وفي المستنقعات كسلاحف لا يحلو لها المقام إلا في الماء الكدر؟

- تجدين الجواب في صفحات التاريخ كل الخلفاء العرب انطلاقًا من الخلافة الأموية إلى حدود العقد الأول من القرن الحادي والعشرين كانت أمام كل وضيع امرأة، تحيطه بعائلتها ولا تفكر إلا في حاجة في نفسها، تحققها أو يقضيها لفائدة أحد أفراد عائلتها أو عشيقها، على حساب المستضعفين ومن المال العام. والشواهد من تاريخ العرب كثيرة، إليك مثلا لا حصرًا العصر العباسي وكيف سقطت الخلافة فآلت بعد ذلك إلى الأتراك.

- أجل صدق من قال: التاريخ يعيد نفسه.

- يعني.

- ألم تشاهد الفيديو المتعلق بالمقبرة التي كان فرعون القرن الحادي والعشرين يعدها لنفسه؟

- بلى.

- أرأيت الحدائق والجنان، ونافورات الماء والغرف؟ - مع ملاحظة أن الأشغال كما ورد في الصورة لا زالت قائمة- أو ليست هرمًا بمواصفات للتمويه؟ ألا ترى أن النزعة الشعوبية تسري في دمائهم، لم يستطيعوا تحقيقها في حياتهم من خلال نظام حكمهم ووجدوا فرصة لتحقيقها في استعدادهم للموت؟

- عجبًا، هؤلاء أولو الأمر منا يؤمون المؤمنين وينصبون أنفسهم حماة للدين يدعون أن الله استخلفهم في أرضه. يسرقون، ينهبون، يقتلون، يبيدون. وفي اعتقادي الخاص أن الإسرائيليين يرتعبون لمجرد سماع :عمر وصلاح... رغم أنهم أموات. في حين يتفرجون علينا اليوم وهم على يقين أن كل حرب ندخلها ضدهم نحن فيها خاسرون. السبب بسيط جدًا فاليهود مؤمنون بقضيتهم. وحينما ينظرون إلى هذا النوع من الممارسات من لدن حكامنا يجدون أن ليس لهم ذرة من الإيمان لا بدينهم ولا بقضيتهم، الشيء الذي يؤكد لهم أن كل حركة تصدر من العرب ضدهم هي بمثابة "ضرطة حمل بالنسبة للذئب" إذ كيف يمكن لامرئ أن يدافع عن قضية لا يؤمن بها. أليس ما يصدر من هؤلاء الحكام احتقارًا لأمتهم قاطبة واستهانة بذكائها؟ هل حدث أن بعث أحدهم وحدة من وحداته العسكرية (وليس وحدات الوطن لأن الجيش الوطني لا يقتل أبناء الوطن وإلا انتقت عليه الصفة. فالجيش جيشهم ليست له الشجاعة ولا الكفاءة لمحاربة العدو الإسرائيلي، وكأنه تلقى

تدريبات متخصصة في قمع الرعايا الذين لا زالوا لم يرقوا إلى مستوى المواطنين، والغريب أن هذا الجيش يتصرف وكأنه لا ينتمي إلى تربة هذا الوطن) إلى جبهة القتال لمواجهة العدو؟ بل قصارى ما يفعلون هو دعوة الناس -وهم لا يؤمنون- إلى الدعاء لأن النصر من عند الله وحده.. مجهود لا يكلف غير تحريك الشفتين دون أن تنبعث العبارة من صميم قلب مؤمن. أكيد أن النصر من الله ولكنه لا ينصر من لا ينصره، ولا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وهل نصره أولو الأمر منا؟ هل غيروا أنفسهم بالسطو على المال العام وتسخيره لقتل أصحابه الشرعيين بالاعتماد على مرتزقة محترفين ؟!!

- أجل إن ما يقدم عليه أمثال هؤلاء الحكام من حرب نارية ضد شعوبهم لأمر تحار فيه كل الكتب، السماوية منها والوضعية. لو كان نظامهم قد استجاب عند الطلب وحقق بعضًا من شروط الحياة شبه الكريمة للشعب المقهور لكانوا قد تلافوا سفك الدماء وتجنب الكشف عن تركيبة نفسياتهم المضطربة ولاستبقوا على أموالهم وكنوزهم وعروشهم. النتيجة أنهم خسروا العروش والأولاد والمال وعادوا بعد أن كانوا شامخي الأنف يرابيع تنتقل من جحر إلى آخر وصورة صاحب العراق لا تفارقهم. أهؤلاء هم حاملو لواء... ؟

• • • •

(٤)

دخلت عليه "سلاف" كالعادة، لتجده متكئًا على أريكة، بلباس النوم، مقصوص الشعر حليق الذقن، يبدو أصغر من سنه بكثير. في نهاية العقد الرابع من عمره، يمارس التمارين الرياضية بانتظام، تبدو عضلاته نصف مفتولة، يتناسب وزنه مع قامته المعتدلة، مدمن على القراءة، منفتح على العالم ومستجداته، مواظب على عمله، يشغل منصب رئيس مجلس إدارة، لا يسمح لنفسه بالتأخر عن موعد عمله. كثير الأسفار، محب للحياة. كان يعشق الموسيقى الكلاسيكية وقصائد كبار الشعراء، بألحان عمالقة الموسيقى العربية وأصوات أشهر المطربين والمطربات. أما الموسيقى الغربية فكان يكتفي بسماع العزف على الآلات وعلى وجه الخصوص الآلات التقليدية، لا يمكنه تذوق الكلمة مادام يقف في الأسبانية ويقطف في الإنجليزية، أما فيما يخص الموسيقى والغناء الفرنسيين فكان ينفر منهما؛ اللهم بعض المقاطع القليلة.

وقفتْ أمام خزانة أقراص الأغاني تقلبها، تقرأ عناوينها "القمر الأحمر" "الشاطئ" و"راحلة" لاحظت أنها من ألحان المرحوم عبد السلام عامر، تم تنقل بصرها ناحية رف يحوي الأغاني الشرقية، أراك عصي الدمع، رباعيات الخيام،

الأطلال، قارئة الفنجان، رسالة من تحت الماء... زحلة: يا جارة الوادي، المواكب... أروع ما غنته ماجدة الرومي وكاظم الساهر ومارسيل خليفة وغيرهم من الفنانين. تنقل بصرها على إيقاع صوت كوكب الشرق وهي تردد: "ما أصعب اليوم الذي مرَّ بي من غير أن أهوى وأن أعشق". وفي الأسفل من الخزانة رتبت أقراص كلها موسيقى غربية مما ألفه شوبان وباخ وموزار... والكثير من الموسيقى الحديثة عزف بلا غناء. أبقت بيدها قرصًا للعازف الأرجنتيني زنفير عبارة عن قطع موسيقية يعيد أداءها بالاعتماد أساسًا على آلة هوائية تقليدية ذات نغمة يغلب عليها طابع النحيب. دون أن تبدي أو يبدو عليها علة إبقاء القرص بيدها، بادر وأهداه لها.

- أقبله هدية، لكن بشرط، قبل ذلك عليك أن تعلم أني كنت أريد أن نسمعه بعد إذن أم كلثوم طبعًا، لا لحاجة أخرى في نفس سلاف.

- وما الشرط؟

- أن تقبل مني قرصًا ما لأغنية تحبها وليست متوفرة في خزانتك؟

- "أشواق" بصوت ميادة الحناوي.

طلبت منه أن يسمعها بصوته ما يملأ إحساسه من وما يجد فيه ذاته. وبعد تردد اقترح عليها:

- اسمعي هذا:

لم أدرِ ما طيب العناق على الهوى حتى ترفق ساعدي فطواك
وتعطلت لغة الكلام وخاطبت عيني في لغة الهوى عيناك

- اسمع منتهى ما قيل في العشق:

إن مر يوم من غير رِؤياك .. مينحسبش من عمري.

- أظن أن فريد الأطرش كان عشقه أرقى:

أيام رضاه يا زماني هاتها وخذ عمري

- قد يضاهيه في ذلك صاحب أو صاحبة هذا الإحساس:

Après-toi ,j'ai les yeux humides, les mains vides et le cœur sans joie
Après-toi ,je ne peux plus vivre

كان جل أوقاته في البيت يقضيها في هذه الغرفة، حيث تقريب الخدمات من القاطن، إلى جانب خزانة الغناء والطرب، خزانة من الألمنيوم والزجاج، حبلى بالكتب. وأنت تجيل بصرك تلاحظ أن له اهتمامًا بالقصة والشعر، روايات وقصص من مختلف العصور منها ما كُتب بالعربية ومنها ما كُتب بالفرنسية، ودواوين شعرية أغلبها عربية. رغم كونه أمازيغي الأصل لم تكن مكتبته تحوي إلا اليسير من الكتب ومن الموسيقى الأمازيغية. ولم تخل من كتب في مختلف مجالات الأدب والمعرفة.

وعلى شاشة التلفزيون يتنقل بين بعض المحطات الفضائية عربية وأجنبية، يطلب البرامج العلمية والفكرية والوثائقية، أما في الوقت الراهن الذي أخذت البلاد العربية تعرف حراكًا، انصب اهتمامه كثيرًا على المحطات الإخبارية، وخاصة التي تهتم بتحليل الأحداث.

كان يتسلى بقرض الشعر ويحلو له أن يقرأه على مسمع سلاف. إذ كان يتمتع بقراءة ما كتب، ويتمتع بالنظر إليها وهي مصخية، ويتمتع بإعجابها بشاعريته.

- لقد استمتعنا بالموسيقى والطرب، هلا شنفت أذني بما جادت به قريحتك؟
- في أي شدو ترغبين، أ أنغام قلب مفعم بالحب، أم صوت أمة تثور لأجل نشقة رائحة خبز حافي؟
- لنقل أسمعني صوت الشعب.
- فليكن، لكن القصيدة، يحرم سماعها على كل من لا يبلغ من العمر سبعًا وعشرين سنة.
- ليست العبرة بالكم بل بالكيف أيها المتشاعر.

ضحكا معًا من الأعماق، وشرع يقول:

"من رحم الجوع، ومن بطن السغبْ
من سنوات الرصاصْ

من لظى الجمر، ومن ألسنة اللهبْ
عدت من ماضٍ بعيدْ
نبشت قبرًا وموتًا أرديتْ
من بين ألسنة لهيب الحريق
تسللت
من كدمات السياط انبعثت
كسرت قيدًا، وجدارًا هدمت
أبطلت سحر نظام طالما جارْ،
أرقصت ساحات نصر
في القلب إيمان نبي
هو السلاح ’هو الشعار
والحق يفرد الجناح، يأسر الفضاء
يقهر ظلمًا، وذُلاً، وكل هوانٍ وعار
ينبت الصخر زهورًا والفل والريحان،
عدت يا موج وقد طال نومك
عدت تحيل الليل نورًا يا مهيار ".

- أكاد أراكَ تعمه في كل واد، لكن لا تعول علي، لن أتبعك.
- لستِ غاوية ما دمتُ لم أرق إلى مستوى الشاعر بعد، لكن احترسي مستقبلاً.

• • • •

(٥)

وفي اللقاء الموالي أحضرت قصيدة "أشواق" بصوت ملحنها "رياض السنباطي" وكانت متوفرة لديه، ولم يشأ أن يخبرها، بل سحبها من مكانها في الخزانة، حفاظًا على الفرحة التي لازالت تعيشها منذ ابتاعت القرص.

لم يكن يتوقع أن تدخل عليه وعلى عينيها النظارات الشمسية العريضة، وما أن رآها على هذه الهيئة حتى أحسَّ أن النظارات تحجب حسنها، انتظر حتى اقتعدت أريكتها المفضلة، وطلب منها أن تعيدها على عينيها ثم طلب منها رفعها من جديد وقال:

- أعيدي نظارتيكِ!

لما لبستها، نظر إليها مليًا، والبسمة ممزوجة بالشهوة ترتسم على شفتيه:

- ارفعيها من جديد، لكن رجاء لما تخرجين من هنا، لا تعيدي رفعها أبدًا وأنتِ خارج البيت، لا لأنها تزيدك حسنًا، فكلانا يعلم أنكِ أنتِ من تعكسين بهاءكِ عليها، لا لأنها تحمي عينيكِ من أشعة الشمس بل وبكل بساطة لأن أشعة الشمس تذوي، بل تنصهر في بريق عينيك، فهي تحمي الشمس من أشعة عينيك، وتقديرًا لدور الشمس وأثرها على الكون والعباد، رفقًا بها لكي لا تنصهر تحت تأثير إشراقهما. ورحمةً بقلبي، فهما تحميان قلبي من لظى الغيرة عليك.

إطراء رفعها فوق السحاب، وما شعرت بنفسها إلا وهي قد انتقلت إلى حيث كان يجلس على الأريكة الطويلة تستطيب نكهة هذا الإطراء، تمددت، تضع رأسها على فخذه. وهو يغازل خصلات شعرها، أخذا يستعيدان ذكرياتهما، أول حديث مباشر وقد سبقته أحاديث غير مباشرة العيون الحركات... انطلاقًا من أول لقاء، لم ينسيا أي تفصيل، الزمان بالدقيقة، المكان ومدة الانتظار ومن كان المتأخر وحالة الطقس، والمسافة التي مشياها، ومن رمقهما من معارفهما، وكيف تصرفا، وكل كلمة من الحديث الذي جرى بينهما، وأخذ كل منهما يضيف ما أحس به، ولم يكشف عنه في ما قبل.

بالنسبة لأم سلام، قضت ليلتها نادمة على الامتناع عن القبلة التي حرمت نفسها منها: "لو كنت قد فعلت لتخطيت عقبة صعبة لكن لا بأس ففي المرة المقبلة لن أسمح للفرصة أن تضيع، وفعلا استدركت ما فاتني في اللقاء اللاحق".

أما أبو سلام الذي كان يرغب من خلال عرضه أثناء اللقاء الأول في إزالة الحاجز لا غير، فقضى ليلة يبني فيها أحلامًا ذات أمد قريب لا يتعدى شهرين معتبرًا ما يحدث معها محض إعجاب سرعان ما يزول.

ولم يفتها كالعادة أن تعرج على غيرتها، خاصة لما تراه في حديث إلى إحدى زميلاتها أو زميلاته وكيفما كان شكلهن،

وكيف كانت تعقب لفت انتباهه بعبارتها: "تذكر، لا يهمني غير أنها أنثى". وكيف كانت تطيل الوقوف حتى يحس كل من مات حسه. وتعود من الماضي لتنظر إليه من أسفل تقرأه، تتفحص قسمات وجهه، تطيل النظر في عينيه الضيقتين، ترى لهما جمالاً ساحرًا، تزعم أنها لم ترَ قط تلك الاستدارة السوداء التي تحيط بالبؤبؤ، لهما نظرة آسرة. ترى فيه الشخص الذي تحلم به حسنى بنات حواء، يعتني بنفسه، لا تطلع عليه شمس دون أن يهتم بذقنه. له طريقة مُثلى في اللباس وانتقاء اللون المناسب لينسجم مع بقية أجزاء الطاقم.

فينحني عليها ولا ترفع رأسها إلا بعد وقت غير قصير لتجد حالها تركب السحاب إلى حيث الرياض والجنان، وهو لا يغادرها ببصره، محمولة على عرشٍ من رضاب. يحلو له أن يراقبها في حركاتها وفي سكناتها، وكانت متعتها بالهبوط تفوق انتشاءتها بالصعود، ولذا كانت تدعو أبا سلام أن يراقبها ويهتم بها، يشد حول نطاقها الحزام، ويقودها حتى تعود لحالها على أقل من مهلها، وكأنها لا تطيق النزول بالسرعة أو القوة الصاروخية التي أقلتها صعودًا.

وترى الشفاه من القبلات تعزف سيمفونيا، الخياشيم لها آلات هوائية، عبرها تتردد الأنفاس في أناة، ونبضات القلبين لها ضابط الإيقاعات، والصدر يعلو ويميد في مد وجزر سرعان ما يصير هذيان ذي عاهات. والشبق يرقص في خضم العناق.

واللمى يترنح من فرط سكر فعل الرضاب أنشاه، فإذا الطبل والزغاريد والخيول والبارود، والابتسام في موكب زف مشهود. وخلف رافعات الصدر حلمات ثارت تنشد رفع الحصار وفك القيود. لتنعم بلمسة الأنامل والبنان ولثمة الشفاه قبل دغدغة اللسان، اختلاط في الأصوات لا يستبد بالسمع منها غير أحات. وبحر الحياة في تجليه وفي إفرازه روح حلزون استفزته زخات الأمطار، فيبسط أعطافه على من يسحره ويخلب لبه كأنه عبد يرضي مولاه إليه يسعى في لهفة وإغماض، يرخي ويشد، في جيئة وذهاب، كماش من إسفنج يُسيل اللعاب، وخلايا الجسم يجتاحها رعش بالروح عبر الجسد يرتقي إلى العرش دونه الجنة مستويات، حقول السعادة والبساتين والرياض والأنهار والجدول والأخدود. وفي النزول تطلب الضمة فتضاعف النعمة مرات ومرات، حتى يتمنى المضموم الخلود معلقًا بين النزول والصعود.

هذه الأمسية بالنسبة لي كانت الغرة على جبين حياتي، انتظرتها طيلة مدة، حتى كاد اليأس يستحوذ علي، بعد أن تسرب إلى نفسي تدريجيًا. اليوم أصبح لي نسب، كتب الميلاد للقبين؛ لأبي سلام وأم سلام، اليوم تنفست الصعداء، اليوم يبدأ تاريخي ويبدأ معه تاريخ عائلتي، الحب فيها أصلب الدعامات.. كم تمنيت وهما في جنتهما أن يحدث المنتظر، أن يفضي اللقاء

إلى نتيجة ملموسة ومجسدة، أن يُسقى الحرث، وتخضر الأم وتبرعم فتثمر وأكون نسمة حية. لما كنت المتفرج(ة) الوحيد، ملأت كل المدرجات، أشجع الفريقين معًا، أسمع رجع هتافي يملأ الغرفة، أردد الشعارات:

ـ كن ذكرًا يا سلام وامتعضي أم سلام. كوني بنت حواء يا سلام وابتهجي أم سلام. أم سلام دعي مرماك يستقبل الهدف.

دعي مرماك يستقبلني. مهما كانت القذفة قوية، سريعة كانت أم ضعيفة بطيئة، رجاء دعيني أمر. لا توصدي مرمى الحياة في وجه نفس تتوق لرؤية الحياة الدنيا. أبو سلام رجاء لا تستسلم؛ إن فشلت المحاولة الأولى، نزولاً عند رغبتي، ابنِ هجومًا جديدًا، أجد التصويب، اقذف حيث لا يوجد ما يسد السبيل إلى الحياة في وجهي. أبو سلام سجل.

اللللللللللللللللله، اللللله، اللله الله، اليوم دخلت، اليوم أخذت مكاني، منذ اليوم لي حقوق وعلي واجبات.

لا زالت أمي بعيدة عن أن تكتشف أني أصبحت جزءًا منها، أحتل لحد الآن مساحة ضيقة من بطنها، قريبًا ستعبأ لوجودي، ستمرر يدها على بطنها؛ منزلي المؤقت، ستعلم والدي، بدون شك ستكون مفاجأة سارة بالنسبة له. لو كان بإمكاني أن أزف إليهما البشرى لما تأخرت لحظة، لكن ما باليد حيلة. لو كانت الأجهزة الطبية موجودة ومتطورة في عالم الأرواح وتستطيع

الكشف عن جنسي منذ اليوم لعرفت نوعه، رغم أني لن أتمكن من إخبار والدي. فرحة أعيشها لوحدي وبمفردي تمنيت من كل قلبي - عفوًا ليس لدي قلب بعد - أن يشاركني أحدهم فرحتي، لكن هيهات لا أحد غيري يعلم بوجودي، حتى أمي العالمة بحسابات دورتها لن تنتظر تشريفي، لابد أن أنتظر حتى تظهر الأعراض. لن تصدق الأمر بسهولة لأنهما لم يكونا قد استعدا بعد لاستقبالي، فالأمر يتطلب مساطر معقدة وطقوس تقليدية، وإشهار القران... قد يعتبران مجيئي في هذه الظروف خطأ. لا لن يفعلا فحبهما أقوى من يدعهما يفكران بهذه الطريقة. على كل حال، لا يمكنني معرفة ما يجري إلا إذا كانا معًا وتحدثا في أمر يهمني شخصيًا، لكن عن طريق الامتياز الذي حظيت به مؤخرًا يمكنني أن أعرف ما يدور في محيطي الضيق.

• • • •

(٦)

قضت سلاف وقتًا ممتعًا، ومع وصول موعد مغادرتها، هيأت نفسها للخروج، وبعد تبادل عبارات الود، سحبت الباب خلفها... وكعادتهما يرافقها عن طريق الهاتف حتى يتعذر عنها أو عنه الكلام. استقلت سيارة أجرة تستعيد اللحظات الجميلة، وهي تفكر وكأنها منشغلة أكثر مما هي راضية... بسرعة صعدت السلم فألقت جسمها تحت رشاش الحمام... ما كادت ترتدي لباس البيت حتى دقت أمها باب غرفتها تحمل لها مظروفًا.

- إنه خطاب من مصالح قضاء الأسرة، لم يشأ العون القضائي أن يسلمني إياه وكاد أن يعود به لولا إلحاحي و...

كادت "سلاف" قبل أن تفتح الظرف وتطلع على محتواه أن تحلق في الأجواء فرحًا، تقبل الظرف، ترقص وتراقص أمها وتردد مقلدة "كوكب الشرق": "أعطني حريتي، أطلق يديّ*** إنني أعطيت ما استبقيت شيئا". ترمي الظرف في الفضاء على طريقة إطلاق سراح حمامة كانت في قفص، وتستلقي على سريرها، ثم تقف وتنط إلى أن أحست بالتعب.

جلست على حافة السرير، ورأسها بين راحتيها في صمت لا تنبس بكلمة. ظلت على حالها مدة غير قصيرة ثم قامت لا تقوى ساقاها على حملها، وهي تنقل بصرها من زاوية إلى أخرى

بحثًا عن الظرف، سحبته من تحت الدولاب، وضعته في الدرج وأحكمت الإقفال. وراحت منتشية كفراشة محمولة على رفيف أجنحة الحرية. تتلذذ بطعم الطلاق وتستطيب مذاق التخلص من الخطيب العاجز.

كلما أوت إلى غرفتها واستلقت على سريرها، مدَّت يدها نحو الدرج دون أن تدير بصرها في اتجاهه، تدير المفتاح، تسحب المجر، تولج يدها وتسحب الظرف تمعن فيه النظر، تقبله ثم تعيده من حيث أخرجته. وأحيانًا تفتح الدرج، تخرج الظرف، فتتجه صوب المطبخ، تأخذ السكين وبلمسة الإداري المحنك تغرز رأسه في إحدى زوايا الظرف ثم تتأهب لشقه عرضًا، فتحجم وتضع السكين جانبًا كطفل فقير حظي بفاكهة لذيذة، يستمتع بإمساكها بين يديه شوقًا، دون أن تسمح له نفسه بالتهامها، رغم ضفادع بطنه الصارخة ولعابه المندفع بلا انقطاع. حتى يخال الناظر إليها أنها تجد سعادتها في كل حركة تقوم بها استعدادًا لفتح الظرف، ثم تسبح في عالم أحلامها، تبني حياة جديدة صحبة أبي سلام.

- (لقد حان الأوان لأطلع "بدر" على الماضي قبل أن يكشفه بنفسه، أو يتوصل بأخباره عن طريق "أصحاب الحسنات" وما أكثرهم. عليَّ أن أنتظر حلول الموعد المقبل، فأحدثه مباشرة، لا داعي لإخباره عبر الهاتف، فمثل هذه الأمور تستدعي الحديث المباشر، وهكذا لن يعود هناك ما يشوش عن علاقتنا مستقبلاً).

مضى أكثر من أسبوعين، وشوقها لبدر؛ الذي كان مسافرًا؛ يتأجج، عنَّ لها أن تكلمه ليتفقا على موعد مقبل. لكن قبل ذلك عليها الاتصال بـ"وداع" تشكره على وفائه بالعهد، وتسأل عن حالته الصحية، وعن آفاقه المستقبلية...

• • • •

(٧)

- أي ريح حملت إلينا صوتك الجميل يا حبيب القلب؟

لاحظت دون أن تهتم أن نبرة صوته صافية لا يخنقها حزن أو أسى مع ثقة في النفس.

- كان من اللائق أن ترد التحية أولاً، هل طلقت اللباقة مع طلاقي؟

- اللباقة طلقتها أما أنتِ فلا.

- لا تكن غير وداع، فأنت لا تتقن التمويه.

- يبدو أنكِ تعيشين في عالم غير واقعك.

- ما هذا القاموس الذي أصبحت تعتمده في كلامك معي، إذا واصلت على هذا النحو سأضطر لقطع المكالمة.

- أنا من يجدك تتحدثين حديثًا غريبًا، لقد حضَّرت كل ما يلزم لزواجنا، بقي لك أن تستلمي مني الشيك. إني في انتظارك.

"ما الذي يحدث؟! ماذا يريد هذا الأبله؟!" قطعت المكالمة، وفجأة استدارت نحو غرفتها، دخلتها مسرعة، فتحت الدرج، أخرجت الظرف، استعملت الإبهام والسبابة عوض السكين، في لمح البصر مزقت الغلاف، رفعت الظرف إلى مستوى فمها، ملأته هواء، وبإصبعين أخرجت الورقة عالقة بأنمليهما على شكل مسكة المقص، فتحتها بيد واحدة على الهواء، ألقت نظرة على محتواها وخرت على الأرض مغمى عليها.

انتبهت الأم "زينب" إلى ما آلت إليه ابنتها، طلبت سيارة إسعاف، وفي انتظار وصولها قرأت محتوى الخطاب. رافقت سلاف إلى المستشفى على متن سيارة الإسعاف، في قسم المستعجلات تكفلت بها إحدى الطبيبات المتمرسات، أجرت لها من الفحوصات ما دلها على حال المريضة.

عادت "سلاف" إلى وعيها، لا تحس بألم سوى أنها قامت مسرعة تبحث عن اتجاه دورة المياه، لحقت بها الوالدة لتجدها تتقيأ وحولت مساعدتها بالإمساك بقوة على رأسها. وبعد فترة قفلتا عائدتين لتجدا الطبيبة قد حضرت وصفة الدواء. سألت الأم الطبيبة :

- لقد حضرت الوصفة، وماذا عن القيء يا دكتورة؟

- لا شيء.. عادي.. مبروك.. وهي تتوجه بالخطاب لسلاف.. تهانينا.. عليكِ الاعتناء بنفسك وبالجنين.. تغذي جيدًا.

لم تقو الأم على تحمل صدمتين متتاليتين فأصيبت بنوبة. ولما كان حال سلاف أسوأ من السوء نفسه عاودتها نوبة الإغماء.

• • • •

(٨)

كان "وداع" شابًا في العقد الرابع من عمره، عليه آثار النعمة المادية، من عائلة ثرية، يشرف على إدارة بعض المشاريع التابعة لمقاولة والده، له مكتبه الخاص، في الطابق السادس من العمارة المقر لإدارة مجموعة شركات "شروق" يركب سيارة رباعية الدفع من أحدث طراز، يسوقها شخصيًا. متوسط القامة ضيق المنكبين بالنسبة لردفيه، يكاد يكون أمرد لا يظهر على وجهه إلا بعض الزغب أسفل ذقنه. نال حظًا بسيطًا من التعليم. تفرغ للعمل مباشرة بعد حصوله على شهادة البكالوربا. تعرف على "وداع" في إحدى الحفلات العائلية، وبعد فترة وجيزة بادر بخطبتها.

لم يكن يدنو منها، كان دائمًا يحافظ على قدر من المسافة الفاصلة بينهما، وكثيرًا ما كانا يخرجان معًا، وكان لا يجرؤ على لمسها، وإن حدث أن تجرأ أحست أن يده ترتجف، وكثيرًا ما حملتها رغبة أنوثتها على التحرش به دون رد فعل منه. كان يصطحبها إلى الأماكن العمومية، يغدق عليها الهدايا وينثال عليها بالصلات ويتجنب اصطحابها إلى الأماكن الخاصة. كانت تعزو ذلك لقلة تجربته مع بنات حواء، كل أوقاته يستنفذها العمل المتواصل نتيجة المشاريع الكثيرة والمدرة.

حدث أن اتصلت بها يومًا إحدى قريباتها، تزعم أنها رأت وداع صحبة بعض الفتيات، في سيارته، يصفقن ويتحركن يرقصن وهن جالسات. رغم ما أحدثه الخبر من أثر في نفسها اعتبرته من باب الحسد أو على أكبر تقدير مستخدمات في الشركة وكان من آثار الخبر أن أصبحت تنتابها شكوك، نتيجة ملاحظاتها حول العديد من سلوكاته، يأتي حركات أقرب إلى حركات الأطفال منها إلى تصرفات الراشدين. لما سئمت من تصرفاته بادرته:

- لاحظت أنك بقدر ما يزيد موعد الزواج اقترابًا، تجد في اختلاق أعذار، واصطناع ظروف لتأخير الموعد. أخبرني ما الأمر؟
- حسب شركة النقل التي تم التعاقد معها، سيتأخر التجهيز الذي ابتعته من "روما" نتيجة لمسطرة الاستيراد.
- إذا سلمت معك بأن التجهيز سيصل متأخرًا، ألم تعطك الشركة أجلاً محددًا؟. دعنا من هذا، وأخبرني عن المبلغ المالي المتفق عليه لأجل أن أتكلف شخصيًا بشراء الحُلي؟
- بالنسبة للمال، قريبي "سعد" الذي وعدني بتسديد ما لي عليه من دين أخلف وأجل الموعد أكثر من مرة. وأنا أنتظر انتهاء موسم الحج، فهو الآن على رأس بعثة شركة الأسفار التي تتكفل بتنظيم الرحلات والإشراف على توفير مقرات للسكن وما يتبع ذلك من متطلبات راحة الحجاج الميامين. وحتى إذا

تغلبنا على ما سبق ذكره، فلن نقيم حفلاً قبل أن يتمكن أخي الأكبر"مجد" المتنقل بين كبريات شركات العالم أن يحصل على إجازة طويلة نسبيًا.

- أ أفهم أنك تماطل قصد إلغاء مشروع الزواج؟

- لا يا حبيبتي أنا أكثر منكِ إصرارًا على الزواج! رجاء أمهليني بعض الوقت!

حاولت جاهدة التوصل إلى فهم ما يجري حولها من غموض، كلما باشرته بالسؤال في الموضوع، وجدته كثير اللف والدوران. فاتحت والديها في شأن ملاحظاتها، ودنو الموعد المحدد والخطيب لم ينجز أدنى شيء مما عليه... تعبت من التسويفات وقررت أن لا تبقى مكتوفة الأيدي...

اقتفت خطاه... لاشيء يثير الانتباه غير تردده على إحدى العيادات المتعددة التخصصات. راقبته يومًا، علمت من خلال الممرضة أنه منذ فترة وهو يتابع العلاج، تحت إشراف "الدكتور الفازي" الأخصائي في أمراض الجهاز التناسلي. فكرت مليًا، وانتظرت أيامًا قبل أن تقرر زيارة الطبيب المشرف على علاجه... بعد رفض قاطع بدعوى حفظ أسرار المرضى لم تجد بدًا من اللجوء إلى أحد الأطباء من عائلتها بعد أن تأكدت أن الأخصائي المشرف على علاجه ليس مجرد زميل بل صديق لقريبها. قدَّم لها يد المساعدة بصفتها خطيبة المريض الذي يعاني من قصور جنسي، وجد الطبيب أن لا ضير ما دام الأمر

يهم الخطيبة بشكل مباشر، ورغم ذلك لم يخبرها بتفاصيل الملف الطبي إلا بعد تعهد منها بعدم إطلاع خطيبها على مصدر معلوماتها وبضمانة من قريبها وصديقه، زميله في المهنة... لم تخبر"وداع" بشيء مما علمت من أمره، التزمت الصمت مدة، تفكر في هذه المصيبة التي حلت بها. أتبقى صامتة تنتظر شفاء وداع؟ وهل سيكتب له الشفاء أم سيظل على حاله؟ ما العمل؟

عاودت بعد مدة زيارة الطبيب، تحاول أن تعرف مدى خطورة الوضع، وهل من أمل في الشفاء وإذا كان كذلك فما نسبة الاحتمال، كل ما حازت عليه هو أن الشفاء من عند الله، والطبيب يعمل ما في وسعه، والنتيجة لاضمان لها.
شكرت الطبيب على ما قدمه لها من خدمة ثم انصرفت وقد اتخذت قرارها.

طلبت من وداع أن يطلقها على الفور دون أن يسألها عن السبب، وكعادته أخذ يماطل معتقدًا أن كل ما في الأمر أنها ملت الانتظار، واعتبر طلبها هذا من باب التهديد لتحمله على الإسراع. ولما لم يستجب أعلمت عائلتها بحقيقة أمره، وهي عازمة على رفع دعوى تطلب الطلاق... سعى نحوها راكضًا، يلهث، يتوسل إليها لتتراجع عن الدعوى لأن في ذلك فضيحة كبرى بالنسبة له، وتعهد لها أن يطلقها هو تجنبًا للإشاعات التي قد تحاك ضده، كما توسل أن تبقى هي بعيدة عن الموضوع

حتى تتوصل بقرار الطلاق. وعدها بمباشرة الإجراءات شخصيًا في بداية الأسبوع نظرًا لما قد يترتب عن الموضوع من نتائج قد تسيء إلى سمعته وسمعة عائلته. لم تشك للحظة، واعتبرت الأمر بات مقضيًا ما دامت كل المشيرات تدل على أن ميزان القوة في جانبها وأنها تمسك العصا من الوسط تتحكم فيها كما تشاء. إذا لم يفِ كعادته، تفضح أمره بين جميع الناس، وهو يستحق ذلك باعتبار إخفاء أمر كهذا على مَن مِن المفروض أن يشاركها الحياة.

وهل من الممكن أن يكون قد أصيب بعد الخطوبة واعتبر إخبارها أمرًا ينقص من رجولته؟ أم يكون قد أصيب على إثر علاقة ما؟ مهما كان الحال فالارتباط بهذا النوع من الناس محاط بالأخطار، ولذا لا تنازل عن الطلاق مهما كلف من ثمن.

في خضم هذا الاضطراب اتصل بها هاتفيًا وصوته يشي بضعفه وتعبه النفسي يطلب منها يد العون، فرقت لحاله رغم أنه لا يستحق، ماذا لو كانت هي فتاة عاجزة عن الزواج؟ كيف كانت ستتعامل مع خطيبها؟ ربما أتت تصرفًا قد لا يختلف كثيرًا عن تصرفاته، وقدرت عاقبة أمره وقررت مساعدته خلال هذه المدة التي تسبق صدور الحكم بالطلاق، على أن لا تخبر أحدًا وتبقى خطيبته في نظر الناس، شريطة أن لا ترتبط به حتى إن كُتب له الشفاء.

دخلا في علاقة من نوع جديد، أصبحت تعامله كصديق، وهو بدوره لا يتجاوز حدود هذه الصداقة، إلا أن تماطله بقي قائمًا، إذ لا يزال بعد أن مرت شهور لم يقم بأي إجراء في ما يخص جمع ملف الطلاق ومباشرة الإجراءات الإدارية.

كان في هذه المرحلة قد لاح لها "بدر" وشيئًا فشيئًا أصبح يملأ تفكيرها، ثم أخذت تفرش له مكانًا بقلبها، أسلمت له شفرته، ليلجه آمنًا مطمئنًا، كما استطاعت أن تستبد بقلبه، فهاما ببعضهما حبًّا، لا تستطيع أن تغيبه عن فكرها.

وهي منشغلة إلى حد كبير بفارس أحلامها الذي يملأ عليها دنياها، كان "وداع" يتردد على إدارة قضاء الأسرة شخصيًا دون أن يكلف غيره.

• • • •

(٩)

الخطاب حُكم صادر عن المحكمة المتخصصة في قضاء الأسرة. بموجب هذا الحكم باتت "سلاف" مجبرة على الالتحاق داخل أجل محدد ببيت زوجها.

- "يا إلهي أتزوجت؟ أسبق أن ولجت بيت الزوجية حتى أطالب إلى بيت الطاعة؟ ما الذي يحدث؟ هل جن ذاك الأبله؟ أيبلغ به الخبث هذا المبلغ؟ ألم أتفق وإياه؟ طيب يا زوجي العزيز "يمكر أكثر من يمكر في النهاية" لن تكون زوجًا إلا على الورق" "وداعك سيكون على يدي".

ردَّدت هذه العبارة في سرها أكثر من مرة.

ما العمل بعد أن وجدت نفسها ضحية لعبة قذرة حاكها وداع. ترى ما موقف مدونة الأسرة من هذا النوع من الاحتيال؟ إن أشد ما يؤلمها في الموضوع هو استغفالها، سايرته واكبت عجزه، تتصنع مواقف الخطيبة على مضض، تداري نقصه، تعامله كشخص متحضر. لِمَ لمْ تحطط؟ وكيف غاب عنها أن هذا النوع ليس أهلاً للثقة؟ أين كانت طيلة هذه المدة التي تزيد عن سنة؟

فكرت في اللجوء إلى القضاء، فكرت في الاستعانة بخدمات الجمعيات النسائية خاصة من تنشط في حقل حقوق النساء المعنفات، أو ليس هذا عنفًا يُمارس عليها؟

صدر الحكم، يقضي بعودة سلاف إلى بيت زوجها. يا لندمها على التسرع في عقد قرانها، تكره تذكر تلك الليلة وما جرى ومن حضر من عدول وشهود ومدعوين... ألقت سحنتها على السرير بعد أن أحكمت إغلاق الباب. لاشيء يجدي كما نصحت الجمعيات غير الإصرار على الطلاق.

أصبحت سلاف في وضع صعب جدًا، تشقى على ثلاث جبهات: من جهة يحاصرها وداع بإرغامها على الزواج، ومن أخرى حلم حياتها "سلام" أوشك أن يتحقق، وحبها الكبير لوحيد من جهة ثالثة. كادت تجن ويضيع صوابها. أي أعصاب تستطيع التحمل في مثل هذه الظروف المحيطة بها؟

لم تعد تذكر كم يومًا حبست نفسها في غرفتها. أذاقت أمها أمر عذاب رأته في حياتها، حتى ظلت لا يغمض لها جفن، تتظاهر بالنوم في حضور زوجها بجانبها، تتظاهر بالهدوء، وتداري قلقها بادعاء المرض لكي لا يشعر بشيء، فما أقدمت عليه ابنته يدفع به لقتلها أو للانتحار. باتت الأم تفكر في طريقة تحفظ بها ماء وجه العائلة، فلم يكن أمامها سوى دعوة ابنتها للتخلص من الجنين. وعليها أن تقود ابنتها في أقرب وقت إلى

إحدى المصحات حتى لا يتفاقم الأمر أكثر مع مرور الوقت. لكن ما العمل والفتاة حبيسة غرفتها، لا تريد سماع أحد، ولا رِؤية أحد، بدون أي طعام، تكتفي ببعض الماء.

مع مرور الأيام أصبح ذهنها يصفو تدريجيًا. "يا إلهي، خذ بيدي وأهدني إلى التفكير السليم حتى أتخذ القرار الصائب، لقد وجدتُني أضعف من الضعف نفسه. يا رب، مدني بقوة من عندك. "وداع" إنسان مريض عضويًا ونفسيًا، والارتباط به وخاصة بعد الاستغفال والتحايل والخداع ليس حكمًا على الحياة بالفشل؛ فحسب بل بالجحيم، وقوده ولظاه الإحساس بالذنب تجاه من علمني أنوثتي، من أحبني إلى درجة الجنون، وأحببته بلا حدود. وكيف أدخل بيت "وداع" وأنا أحمل في أحشائي ثمرة حبي الجامح من حبيبي "بدر". هل يجدر بي أن أصارحه؟

- أجل يا أمي صارحيه، لا أريد أن أخرج إلى الوجود إلا في حضن أم سلام وأبي سلام، أعلم أنك لا تسمعينني، ولن تحسي بمعاناتي من جراء زواجك من غير أبي.

"وحتى إذا فعلت سيعتبر ذلك ادعاء اتخذه ذريعة لأتخلص منه، لن يرضى أن يستلم مني الشواهد الطبية، قد يعتبرها مزورة، كأن يتهيأ له أن الاسم لي والمادة المثبتة للحمل لامرأة بالفعل حامل. والنتيجة في هذه الحالة ستكون أدهى وأمر، لسببين: بالضرورة مع مرور الزمن سيعلم أني حامل من غيره، سواء

أكان قد شفي من قصوره أو لم يشفِ، ففي الحالة الأولى قصوره هو الدليل وفي الحالة الثانية من خلال موعد الإنجاب. وفي كل الحالات لن يرحم ضعفي ولا ذلي.

"بدر" الإنسان الرقيق، الخلوق المفعم بحب الحياة بعيدًا عن كل ما يعكر صفوها، لا زال لا يعلم شيئًا عن علاقتي بوداع كما لم يبلغه بعد خبر الحمل.

- أبلغيه يا أمي رجاء، أبلغيه كل شيء، إنه يحبك كما لم يحب أحدًا قبلك، والمحب لا يمكنه أن يضر بصاحبه، لطالما سمعتكما تتحدثان عن ما يصنعه الحب من مستحيل. وبعد يا أمي إن فكرتِ في غير والدي ستفسدين ثلاث حيوات: حياتك وحياته وحياتي. آه لو يبلغك صوتي القادم من أعماق الرحم!.

"يستطيع بدر أن يقرأ ما بقلبي في صوتي وعلى صفحات وجهي، إذن لا داعي لمكالمته ولا داعي لرؤيته، لم يبق أمامي سوى الخطاب المكتوب وعلي أن أتوخى الحذر فإن له من الذكاء ما يستطيع خلط كل أوراقي. ماذا لو اقترحت عليه أن نعيش معًا تحت سقف واحد دون تسريع الزواج؟ ولكن سبق أن أطلنا الحديث في أمر علاقتنا وكنا دائمًا معًا ضد هذا النوع من التصرفات، فكيف... لا.. لا لن أفعل.. وحتى إذا افترضت أنه سيرضى ويوافقني على حماقتي، ماذا عن عقد زواجي الموثق، ألن يظهر وداع على مسرح الأحداث إن عاجلاً أو آجلاً؟ لا،

وألف لا، لن تعلم بأمر حملي غير أمي. يا إلهي تكاد رأسي تنفجر".

- وأنا؟ عفوًا، نسيت أنكِ تجهلين أني أصبحت أدرك ما يجري من حولي.

في هذه الأثناء طرقت الأم باب الغرفة مرة ثم مرتين ثم ثلاثًا، وسلاف تراودها رغبة في سماع كل ما لدى أمها، فمهما صخبت ومهما ضجت فلن تستطيع إلا مد يد العون لابنتها. قامت وفتحت الباب وارتمت في حضن أمها، لتجهش بالبكاء. أما دموع الأم فانهمرت ساخنة تحرق خدها في صمت كما سبق أن احترق قلبها ولا زال، على حال ابنتها. بعد شهيق طال من الفتاة، أخذت الأم تمسح دمعها وتطلب منها كفكفته، ولما ساد الصمت، بادرت الأم:

- اسمعي يا ابنتي وأصغي إلي جيدًا، لقد حدث ما حدث، وما كان مكتوبًا مقدر لا مفر منه، ومن العيب أن نبقى مكتوفتي اليدين، علينا أن نتصرف، وبأقصى سرعة، حتى لا نندم حين لن ينفع الندم. هل فهمتِ يا بنيتي؟

أطرقت سلاف ليس استحياءً بل تقلب الفكرة علمًا منها أنها راودتها من قبل. أما الأم فلم تكن تنتظر من ابنتها سوى أن تجد من يساعدها أو يدلها على الجهات التي تقوم بهذا النوع من العمل، لم تتوقع منها الرفض.

- ماذا دهاكِ ؟ أجننتِ أيتها الحمقاء؟ أتدرين.. أتقدرين حجم ما سيلحقنا من عار بسبب هذه الفضيحة المشؤومة؟ لن أطاوعك مهما كلفني ذلك من ثمن، حتى ولو اضطررت لإطلاع والدك على ما يجري من حوله ليتصرف معك بطريقته.

الحمد لله أن سلام ليس له(ها) القدرة على سماع غير صوت أمه(ها)، وإلا لكان قد أصيب(ت) بنوبة في الرحم نتيجة لما تقوله جدته (ها) بل تريد أن تضع حدًا لحياته(ها) التي طالما حلم(ت) بها.

- رجاء أمي، هل يمكنكِ أن تسمعيني في هدوء؟ أعترف أني أذنبت في حق العائلة وليس في حق نفسي. وكل ما أرجوه منكِ هو أن تتمالكي نفسك قدر الإمكان، ولا تتوقعي شيئًا سيئًا على الإطلاق. وإذا احتجتُ منكِ المساعدة عديني ألا تبخلي بها علي، فإن لي خطة قابلة للتنفيذ ولن تكلفنا فضيحة ولا خسارة تنتج عليها. ثقي بي فقط، وادعي لي بالتوفيق. آآه نسيت.. ابدئي في إعداد ترتيبات العرس.

انبهرت الأم أمام ما بدت عليه ابنتها (الضعيفة التي لم تتحدث غير لغة الدموع طيلة كل هذه المدة) من قوة، بل من عزم، بدت واثقة من نفسها عارفة بثبات خطواتها وبلوغ هدفها. موقف بعث في نفسها الكثير من الأمل والطمأنينة.

• • • •

(١٠)

دخلت سلاف غرفتها بعد أن خففت عن أمها. يبدو أن الوقت لن يكون في صالحها إن هي تأخرت أكثر. تجردت من كل ما له علاقة بالعاطفة، لم يعد القلب صاحب أدنى نفوذ، أوكلت الأمر كله للعقل وحده. طلبت وداع على الهاتف، بعد التحية والسلام:

- من الضروري أن أراك عاجلاً.

- ما الأمر يا قطتي؟

- كل الخير، سأخبرك بكل شيء عندما تصل، "باي".

وصل وداع على جناح السرعة، استقبلته الأم بما يليق من حفاوة، وبقي منتظرًا في الصالون تشريف سلاف. وقف الشاب لما دخلت العروس، سلم وأذنت له بالجلوس واقتعدت مكانًا بجانبه.

- وداع، صحيح أني زوجتك شرعًا وقانونًا، لا يختلف في ذلك اثنان، لكن قل لي بربك، هل بإمكانك أن تكون زوجًا وتكون أبًا؟

- لا تشغلي بالك بهذا الأمر، لقد تماثلت للشفاء واستعدت عافيتي، وأنا الآن أنعم بكامل قواي...

غمغمت سلاف: الشكر لك يا رب، ثم استأنفت:

- أ أنت متأكد من الشفاء؟ ألا يجوز أن يكون ظرفيًا؟ أو بمعنى آخر ألن تعاودك الحالة لا قدر الله؟

- كل ما أنا متأكد منه هو ما أنا عليه الآن من عافية.
- أ أنت مستعد للزواج؟
- منذ الأزل
- لدي شروطي
- أقبل بها
- لا ليس قبل أن تسمعها
- هاتِ
- الزواج يتم اليوم، لا أرغب في التأجيل، ولا أقبل منك عذرًا بحجة العمل، ولا أرغب في حفل اليوم، فلنسافر اللحظة في شهر العسل، والعائلة في غيابنا تعد للحفل على مهلها. وانتبه جيدًا لن يكون إلا في مدينتكم الأصلية حيث أريد أن أرى عائلتكم، وضياعكم، وأن نعيش هناك لفترة حتى يتسنى ذلك. ومع عودتنا، من شهر العسل من المطار مباشرة إلى حيث سيقام الحفل.
- واوْ، ولكن هل ستوافق العائلة ؟
- وهل العائلة هي من ستتزوج؟، نسافر نحن، ومن حيث نكون نتحكم بزمام الأمور وما على العائلة إلا الرضوخ لإرادتنا.

سافر الزوجان، وهم سلاف كل همها أن يكون وداع قادرًا على الدخول بها، أتقنت تمثيل دورها طيلة شهر التمثيل، لأن في الحقيقة كان بدر من قاسمته الفراش بجسم وداع. فعلت مرغمة

تحت الظروف المحيطة بها. خلال هذه المدة أرغمت نفسها أجهدت ذاتها حتى تحقق الجزء الخطير من خطتها.

لم تكن وحدها(ه) من أرغمتها(ه) الظروف، كان(ت)سلام أكبر من عانى من الوضع الجديد، لم(ي)تصدق أن والدتها(ه) تعاشر شخصًا غير والدها(ه)، وغريبًا عنهم هم الثلاثة. وضع(ي) ترفضه، بكى(ت)حالها(ه) طويلاً دون أن يلتفت إليها(ه) أحد. وليس لها(ه) حول ولا قوة للمواجهة، كل ما(ي)تعيش عليه هو استقبال الفعل، لا (ي)ترفض إلا في سرها(ه) ما دام(ت) غير قادر(ة) على الجهر، والأدهى من كل ذلك هو لا أحد يحفل بوضعها(ه). افتقد(ت) الجو العاطفي الذي طالما حفزها(ه) على طلب الحياة، افتقد(ت) معه شجون الحديث ورقيق العبارات، وأجنحة الأحلام، وبساط الخيال الذي كان يحملها(ه) ووالديها(ه) إلى العلا. لم تعد والدتها(ه) تنبس ببنت شفة. وإذا حدث أن فاهت تسمعها تتذمر: لقد آلمتني، ألا يمكن أن تكون ألطف مما أنت عليه؟ وهو منشغل عن كلامها مندفع خلف رغبته الجامحة حتى يخيل إلى سلام أنها وأمها في حصة عقاب. وأصعب لحظة كان(ت) (ي) تمر بها ولا (ي) تطيقها هي لحظة مباشرته للأم. وما استراح(ت) من عناء تواجدها(ه) بينهما ألا عندما أخذت أمها تدعي المرض.

أُستقبلا في موكب أميري، أُقيم لهما حفل عرس بهيج - إلا بالنسبة لسلاف وسلام- في قرية جبلية قطعة من الجنة.

ما كادت سلاف ترتاح لتحقيق جزء من مخططها وتطمئن حتى أخذت تعد العدة لزرع حياة وداع بالأشواك بل بالألغام. مباشرةً بعد العودة ادعت المرض، ووداع يعزو تصرفاتها وسلوكها وكراهيتها له للوحم. وحم تعدى زمنه فترته الطبيعية. لم يكن وداع يعمل إلا على إرضائها وعدم التصرف ضد إرادتها ومزاجها المتقلب بتقلب أحوالها النفسية.

• • • •

(١١)

أية قوة هذه التي جعلتها تختفي، إذ لا أحد يعرف لها مكانًا أو سبيلاً أو وجهة، كيف سمحت لنفسها أن تتوارى دون أي أثر، لا بد أن وراء هذا سرًا خطيرًا؟ يناديها أبو سلام عشرات المرات ولا حياة لمن ينادي، إلا روح الببغاء:"يتعذر الاتصال بمخاطبكم، المرجو إعادة الاتصال لاحقًا..." سمع العبارة مئات المرات.. كان بمجرد سماع الإشارة الصوتية يسرع بكتم أنفاس الجهاز. يفتح علبة الرسائل الإلكترونية مرات كل يوم وطيلة الأيام، وعبر بريدها يوميًا عشرات البرقيات، وهو لا يستوعب ما جرى، يقضي يومه تائهًا يبحث عنها، لم يترك إدارة رسمية أو خاصة أو عمومية دون أن يلجها أملاً أن يعثر عليها مهما كانت حالتها أو ظروفها أو صحتها، المهم أن يراها، لا يهم المكان، لا فرق عنده بين مخفر أو مصح أو مشفى أو سجن أو معتقل... يمشي في الشوارع، يتردد على الأماكن التي كانا يرتادانها.

فكَّر في زيارتها في البيت، ، لكن بأية صفة؟

نعم وجدها، وجد الفكرة، كل ما في الأمر بعض الحلوى وصديق يرافقه ليطلبها للزواج...

لم يمضِ من الوقت إلا القليل ليجد نفسه واقفًا بالباب، وقد سبقه قلبه يبحث عنها في كل غرف البيت. لا توجد نسمة حية، أصبح

البيت طللاً، بانت أم سلام. التبس عليه الأمر، وما عاد قادرًا على التفكير، بلغ به الانفعال أن تمنى وجودها إلى جانبه فتساعده على التفكير في وسيلة تمكنه من العثور عليها، أو أن يدفع هذا القسط من صحته دفعة واحدة حتى يعرف ما يجري، عوض أن يدفعه يوميًا بالتقسيط... في طريقه إلى العمل يرى طيفها مقبلة في تهاديها المعهود. فجأة ضرب بكفه على جبينه ثلاث مرات متتالية وبقوة، وانطلق لا يلوي على شيء يكاد يصيح "أوريكا" دخل المكتب، لا أحد بعدُ، عليه أن ينتظر، في جيئة وذهاب، وكأن دهرًا كاملاً انقضى، ينظر إلى الساعة على معصمه التي أصبحت رغم عدم إحساسها تتلافى نظراته القلقة، وكأن جنونًا انتابها. وأخيرًا ها هو أحدهم... لا يذكر أاستأذن أم اقتحم المكان، وقف أمام زميل لها في العمل يسأله وهو يلهث. لم يفهم الموظف شيئًا، مده بمنشفة من ورق، مررها على جبينه ثم ثنى بأخرى. وطلب منه أن يكشف عن رغبته...

"كانت زميلة مجدة، لكنها فاجأتنا بطلب استقالة، ألحت فيه إلحاحًا كبيرًا، رغم دعوتها للتريث، كانت تدعي السفر مع خطيبها وأنها رتبت أمورها، وبعد بضعة أيام أجتمع مجلس إدارة المؤسسة الذي وافق على استقالتها كما عجَّل إجراءات صرف ما لها من مستحقات، من وقتها لم نعد نعرف ما آلت إليه، وإذا أردت المزيد فاسأل بقية الزملاء ربما يعلمون عنها ما لا أعلم".

أظلمت الدنيا من حوله، عقد آمالاً كبيرة على هذه الجهة لكن يبدو أن الأمر أكثر تعقيدًا مما تصور. أين من تحتمي به؟ أين من كانت دائمًا تشكو خوفها من الهجر؟ لازالت أصداء العبارة "عدني ألا تهجرني يا حبيبي" ترن في أذنه. أية ريح عصفت بعرى علاقة سمت بروحيهما؟ لا بد أن ما أقدمت عليه تضحية في سبيل أمر يستحق منها ذلك. لا يمكن أن تكون حكاية الخطيب إلا مختلقة، لا يمكن أن يكون حبها لبدر كذبة، أو تمثيل من كيدهن العظيم. وحتى على اعتبار الكذب أو التمثيل، أيعقل أن تكون بارعة إلى درجة مثالية، بحيث لا يمكن للمرء أن يحس أو يشك؟.. لا هذا أمر جد مستبعد.. هذا آخر ما يمكنه أن يبني عليه فرضية، فهي من تعبر عن حبها في تلقائية، هي من لا يمكن أن تسمح لنفسها بحب شخص آخر ولو قضت عمرها بعيدًا عنه، فهي صاحبة الخطاب القصير الطويل "أحبك" بمائة حاء ومائة باء، خبر إنكاري بمائتي مؤكد في منتهى الصدق من يكلف نفسه عقاب إعادة رسم الحرف مئات المرات لا يهدر طاقاته هباء. من يكشف كل أوراقه، من يعري نفسيته، من يعتلي جسمه كرسي الاعتراف، من لا يستطيع إخفاء عواطفه الملتهبة، من يعلن عن رغباته، ونزواته، من يسأل عن حبيبه آناء الليل وأطراف النهار، من تعشق المواجهة، من تؤمن بالحوار، تنتهج الحجاج لا يمكن، وتحت أي ظرف أن تنسحب انسحاب الجبناء.

قلب صفحات الماضي صفحة صفحة، لعله يعثر على مشير واحد ولو ضعيف يستفيد منه فلم يستطع الوقوف عند محطة محاطة بشك اللهم ذلك الخطاب في بداية عهدهما معًا؛ الخطاب الذي توصل به منها ومن خلال رقم هاتفها الخاص:"هل يمكنني أن أراك يوم الجمعة يا عمري" وسرعان ما أردفت خطابًا تعتذر وتدعي أن أختها من استعملت هاتفها وبإذن منها، لكن لما كان رقم هاتف أبي سلام مسجلاً على رأس القائمة، والأخت لا زالت تركب رقم "عمرها" انبعث الخطاب نتيجة نقرة عن طريق الخطأ. هل "العمر" كان لها وليس لأختها كما زعمت؟ رباه أيكون عمرها هو نفسه خطيبها؟ أيعقل هذا؟ ركن هذا الاحتمال جانبًا حتى يعود إليه فيما بعد، في حالة ما إذا لم يهتد إلى مسلك يخرجه من هذا النفق المظلم..

كم مرة ألحت عليه مازحة، اعتبره ضربًا من الطيش وعدم تقدير العواقب نتيجة لاستعجالها الاقتران بأي شكل كان حتى أنها اقترحت عليه أن يتزوجا بحضور شاهدين معهما في غياب الأسرة والعدلين وكان في قرارة نفسه يعزو موقفها هذا إلى فارق السن فهو يكبرها بكثير، وتخوفها من رفض عائلتها، وخاصة أمها، وهو لا يأبه، لكونه متأكدًا أن لا اعتراض عليه ولذلك كان يردد على مسمعها أن الدخول يكون من الباب، لا من غيره... بعد مرور وقت على اقتراحاتها، طلب منها أن يزورهم في البيت، يتقدم لخطبتها وفق ما يقتضيه الدين والأعراف..

سوفته.. أشار عليها أن يباغتهم فأبت مدعية أن أية خطوة في هذا الاتجاه في الوقت الراهن أو في المستقبل القريب ستفسد خطتها. طالبها كشريك من حقه معرفة ما الذي تفكر فيه، وافقته الرأي؛ لكن أصرت على أن تبقى صامتة حتى يحين الوقت المناسب.

أعياه التفكير، أنهكه الهجر، لم يعد يتمتع بالنشاط المعهود، تقلص مردود عمله، فقد احترام وتقدير رؤسائه. صحيح لقد أبدوا تعاطفًا وحاولوا أن يتفهموا معاناته، لكن الأمر طال به الأمد، حتى لم يعد العمل يرغب في من أفقدته ليلاه صوابه، وراح يركض خلف سراب، تنعكس ظروفه الخاصة بشكل خطير على عمله. حاول قدر الإمكان إصلاح ذات حاله والانتباه في عمله إلا أن وضعه يتفاقم وحاله لا ينصلح.

نصحه أحدهم بعرض حالته على طبيب نفساني حتى يساعده على تخطي هذه المرحلة. تردد كثيرًا وعيون تنظر إليه من زاوية الشفقة، وأخرى من زاوية الشماتة والقليل من أقاربه يخلص له النصيحة، والكثير من معارفه يتحاشون لقاءه. لم يعد يهتم بمظهره ولا بهندامه ولا بمأكله، أصبح أسير ماضيه، وكأنه لا يبذل أدنى مجهود للانعتاق من قمقمه، ربط كل أسباب حياته بهذه التجربة، كأن لا وجود في الدنيا بكل ما فيها من طيبات، من خيرات، من انشغالات ما ينسيه أو يشغله عن التفكير في ما يستبد به.

زار الطبيب، خضع لجلسات.. انسحب وحاله لم تتحسن... أيعقل أن يكون الخطيب هو العمر؟ أعاش كذبة بين العمر والخطيب؟ لابد أن لُغزًا ما يغرق الحقيقة في الظلام، خاصة إذا أخذت بعين الاعتبار كل الإشاعات الرائجة في المدينة كالتي تتحدث عن قصة حب أنهتها منتحرة أو التي تقول بقتلها لخطيبها أو التي تنسج حكاية فرارها مع عشيقها.

نصحه أحدهم في العمل أن يقدم استقالته، أو يطلب إجازة طويلة دون أجر حتى يحظى باحترام أولاً وبحقوقه كاملة. فمركزه يضطره للتعامل يوميًا مع رؤسائه سواء محليًا أو وطنيًا، الشيء الذي يتعذر عليه وهو على مثل ذي الحال.

• • • •

(١٢)

فكَّر في إعادة ترتيب أمور حياته، فقد حبيبته، فقد عمله، من الغباء أن يفقد ذاته، آن له أن يعي ما آل إليه، ويستفيد ممن حوله من الناس الذين ينظرون إلى المستقبل تاركين خلفهم الماضي للماضي، عليه أن ينظر إلى الغد، عليه أن يتشبث بالحياة يقطف وردها غير آبه لأشواكها...

يعقد العزم، يحاول إيجاد برنامج يومي يسير عليه، يسطره عن طريق توزيع يومه على العديد من الأنشطة بل شحنه بالأنشطة، وهكذا أصبح مع قيامه من النوم، يتناول كتابًا أعدَّه للقراءة منذ أمس، ثم يغادر فراشه حاملاً حقيبة في اتجاه قاعة الرياضة، ليعود إلى البيت بعد الاستحمام، يدخل المطبخ، يعد طعامه، يتناول فطوره ويستلقي على سريره للاسترخاء قليلاً. يخرج إلى المقهى، سعيًا لربط علاقات جديدة على أمل أن تنمو لتصير صداقات قد تعينه على تحقيق ما يصبو إليه من سحب ذيول النسيان على هذا الشبح المطل عليه من الماضي. وبعد القيلولة يعود للقراءة ولا يتوقف إلا مع غروب الشمس لينزل إلى قلب المدينة حيث الحركة على أشدها، يقتعد كرسيًا يحتسي قهوة وهو يحاول استبعاد الذكريات التي تقتحم عليه وحدته بتأمل مشهد من المشاهد العابرة أو صورة من صور المجتمع

المتحرك قد يقتنص منها ما يصلح له موضوعًا لمقال أو أقصوصة ما دام قد صمم على سد كل ثغرة قد تتسرب منها الذكريات، أقحم الكتابة في برنامجه، لا يهمه أن يُقرأ له أو ينشر له بقدر ما يسعى إلى أن يجد لنفسه ملاذًا يحتمي به من شر عذابه. يعود إلى المقهى حيث الأصدقاء الجدد يتجاذبون أطراف الحديث، يجترون موضوع الساعة المرتبط بالحراك الذي أصبحت الساحة العربية تعيشه، يتندرون بما قيل عن هذا القائد العربي الذي جثم على كرسي الزعامة حتى الشيخوخة، وإلى أن تقعرت من فرط طول الأمد من جراء ما يتسرب من الحفاظات التي ظلت تحفظه من شر أبعاره طيلة عقود من الزمن، أو ذاك الذي كان ولا زال يسلم أمور الشعب لأحد صالونات الحلاقة يجز رأسه كما يحلو له ويجرب عليه ما جد من آلات القمع، عفوًا أردت أن أقول القص، أو من لم يجد ما يبرر به خيانته إلا الديمقراطية وهي من أمثاله براء مدعيًا أنه أدخل من الصندوق دون أن يشير إلى من أدخله ولا إلى كيف أدخل، ولن يخرج إلا منه. أو من أصبح مفخرة العرب يستقي من مرجعيته الخضراء حكمة ما أحاط بها لقمان، لخصها في عبارات ستظل شاهدة على ما وصلت إليه البلاغة من إيجاز "دار دار، بيت بيت، زنكه زنكه"...

يعود متأخرًا يفتح علبة الرسائل، يتصفح بعض الجرائد، يفتح الشاشة، ليطلع على ما يكون قد جدَّ على الساحة عمومًا، يحرص كل الحرص على ألا تضيع منه أول فرصة سانحة للنوم. كثيرًا ما يشعل المصباح مرات ومرات حتى يدون ما أقض مضجعه من أفكار أو أساليب أو غيرها.

اجتهد على المواظبة لفترة لا يستهان بها. ولكن على ما يبدو كانت هذه السلوكات بمثابة مسكنات فحسب وليس دواء من شأنه أن يساعده على الشفاء تمامًا.

هل درى أم لم يدر كيف قادته قدماه؟ الأكيد أنه انتبه على إثر سماع أحدهم يتوجه إليه بالخطاب، ليجد بصره معلقًا إلى الباب، شباك من بيت سلاف

- هل تسأل عن أحد؟

ارتبك:

- لا.. لا

- ولم تشرئب إلى النافذة وكأنك تنتظر أن تمدك "ليلى" بفرعها الطويل حتى تتسلق الجدار لتصل إليها؟

لم يجد بدًا من أن يصدُق الرجل:

- أحركاتي بليغة إلى هذا الحد؟ معذرة، أنت محق، فأنا أبحث عن أحد من المحتمل أن يكون متواجدًا، لكن لا أظن، أكيد أنه غادر منذ زمن...

- إن الشباك لغرفتي الخاصة، هل أنت بصدد البحث عني؟ طيب سأجنبك عناء السؤال. إن من تبحث عنهم هم من اشتريتُ أنا وأبي منهم البيت وغادروا ولا أحد يعلم لهم وجهة، كل المعلومات المتوفرة، تقول إن البيت كان إرثًا استغلته تلك العائلة مدة، وشاء الورثة الآخرون أن يستفيدوا من حقهم الشرعي فبيع البيت.

اعتذر وانصرف.. عنَّ له أن يطلبها على رقمها، وتردد كثيرًا قبل أن يعيد الجهاز إلى جيبه، يعلم الله ما الأثر الذي تخلفه العبارة الببغاوية (يتعذر الآن الاتصال...) في نفسه.

ويبدأ فصل آخر من المعاناة تعذر معه ممارسة أي نشاط من الأنشطة التي دأب عليها فترة لا يستهان بها، شأنه في ذلك شأن من أقلع على التدخين ليعود إليه بعد فترة لكن بنهم أكبر. لم يعد يهتم لا بصحته ولا بهندامه، قليلاً ما يكلف نفسه تناول وجبة. يصل في تدخينه السيجارة بأختها، يكفيه عود ثقاب واحد ليدخن طيلة النهار وجزء غير يسير من الليل، ينفث الدخان في الهواء، يتابعه ببصر فنان يرسم أشكالاً تنسجم مع انكسار روحه وطيف الحبيب حاضر يزين اللوحة بل يزيدها بهاء ما دام لم يستيقظ من سبحته السقراطية في محيطات الذكريات.

رغم أنه حرم على نفسه ارتياد أماكن كثيرة طالما تردد عليها صحبة حبيبته، فخياله يأبى العودة منها، بل يظل يرقب إطلالة

طيف الحبيب، يسأل البحر في هدوءه وفي اضطرابه ينتظر أن يبدي إعجابه بعلاقته بليلاه، يسأل المسالك التي قطعاها سويًا، لعله يحظى بحديث عنه، قد يطفئ ولو شرارة من لهيب...

يبدو وضع أبي سلام مثيرًا للشفقة، ولا شفقة تنفعه إلا إذا أشفق عن حاله. لم يعد يغادر البيت إلا لأمور جد حيوية إلى أن توارى عن الأنظار فلم يعد يراه أحد. لم يعد يحتمل أن يسمع القصائد التي كانت في ما قبل ترقص كيانه، لم يعد يتحمل سماع:

إن يكن قلبك لا يسمع لحني فلمن يا فتنة الروح أغني؟

ولا..

يا فؤادي لا تسل أين الهوى كان صرحًا من خيالٍ فهوى

كلما استمع منصتًا لمثل هذه الأشعار لم يستطع كفكفة دموعه.

• • • •

(١٣)

بعد اعتكاف انتبه أن تجربة الانشغال كادت أن تؤتي أكلها، أخذ يبحث عن الأسباب التي كانت وراء فشلها، فرجح أن يكون العامل هو المكان، أو بعبارة أدق يتعين عليه تغيير المكان مادام محاصرًا بالذكريات، أينما ولى وجهه فثمة طيفها، كل مكان من المنطقة ككل كان مسرح حدث عاشاه معًا... وهكذا إذا استطاع أن يعيد تجربة تنويع الأنشطة اليومية وتكثيفها في مكان لم يعرفهما معًا قد يستعيد استقراره النفسي، فعقد عزمه على الرحيل. واجهه صعوبة اختيار الوجهة، لكي لا يخفق مرة أخرى، كان عليه أن ينتبه إلى كل خصائص الأماكن التي جمعتهما لما كانت الحياة قيد اليد. أخذ يدقق النظر في خريطة جد دقيقة تشمل كل القرى والدواوير والقلم بيده، يضع علامات حمراء يقصي السواحل كلها، يقصي الأقاليم الفلاحية الخصبة، بعد أن انتهى أمسك بقلم أخضر يضع علامات على المناطق الجبلية، ثم قلم ثالث أسود يضع علامات على مناطق صحراوية أو شبه صحراوية. دامت العملية أيامًا قبل أن يقع اختياره على منطقتين جبليتين وأخريين شبه صحراويين.

أخذ يستعد للرحيل، يبيع أغراضًا، يبحث عن مستأجر ثقة لشقته والناس من حوله يتأسفون على ما آل إليه من جنون.

استقر بمنطقة سياحية جبلية، ادعى أن الطبيب نصحه بالعيش في مثل هذه المناطق حتى لا يرفض أهل القرية تواجده بينهم، يسكن بيتًا بسيطًا في القرية...

خلال الأيام الأولى أحسَّ بنوع من الغربة؛ لا في المكان فحسب؛ بل في مناحي كثيرة من الحياة، فأغرق ذاته في برنامج قاس. ولكي يتكيف مع الحياة المحلية أخذ يراقب ما يجري وكيف يجري، ومع مرور الأيام أصبح يعتاد على نمط الحياة، عقد بعض الصلات السطحية مع الأهالي يحدثونه عن المكان وتاريخه، وفي المقابل يكثرون ويلحون في الأسئلة إلى درجة الإحراج.

طال به المقام، أصبح يعرف المنطقة بشكل جيد، خرج في رحلات سياحية، زار كل الأماكن، رافق السياح المغاربة والأجانب، استمتع بالقصبات والقصور وحدائقها الغناء والأبراج الأثرية والسجون والمعتقلات القديمة.

ومع مرور الزمن كادت مدخراته تنفذ، لولا عائد الكراء لضاقت ذات يده. في أحد البيوت الذي اتخذه صاحبه فندقا بعد أن جهزه بطريقة ذات طابع تقليدي محلي محظ، كل أثاثه وكل تجهيزاته من إبداع المواهب المحلية، حتى طهي الطعام يعتمد على طاقة الحطب ويحضر بشكل تراثي لا يداخله أي عنصر حديث، وجد عملاً يساعد صاحب الفندق، خاصة استقبال الزبناء الأجانب

الذين يجدون صعوبة في التواصل مع الناس وحتى بعض الزبناء المغاربة الذين لا يستطيعون النزول إلى مستوى مواطنيهم البسطاء والذين يقدمون لهم الخدمات.

مرَّ في بداية إقامته بلحظات من الجحيم، خاصة ليلاً لما يستبد به السهاد، لا يوافقه مضجع، يبيت متقلبًا، تهزه حمى الذكريات، حتى أصبح يخشى نزول الليل ويرتعب من الذكرى، وكم كان يستيقظ فرحًا عندما لا يؤرقه التذكر، وكم مرة استعان بأحد أبناء القرية يقضي الليل يسامره، أما إذا بقي وحيدًا فلا القراءة ولا الكتابة ولا الفرجة بمقدورها أن تفتكه من بين براثن الذكريات يبيت على نجوى طيف حبيب رحل.

طالت به مدة الإقامة بهذه الديار، أصبح وجهًا مألوفًا لدى أهل القرية، منهم من أبدى له ارتياحًا ومنهم من أُعجب به وبأخلاقه ومنهم من اقترح عليه فكرة الزواج بإحدى بنات القرية، وهنا حدث تقليب السكين في جرحه الذي لا زال لم يندمل " لا زواج إلا إذا حن الحبيب. كيف يمكن للمرء أن يعيش مع إحداهن وقلبه أسير لدى غيرها؟" هكذا كان يجيب في سره من يحدثه عن الزواج، أكيد، بات زواجه محالاً، فقلبه أسره لم يشهده قلب من قبل، ليس مقيدًا، ملقى في زنزانة، بل مكبلاً، مجرورًا خلف آسر يقطع مسالك الهجر الوعرة لا يأبه لنزيفه الذي لم يبق ولم يذر غير مهجة تغالب في كبرياء رغم ما تعانيه.

كان لصاحب المأوى بنت حسناء، تساعده في عمله كلما دعت الضرورة، رغم بعد مجال مهمتها تحاول قدر المستطاع أن تتقرب من مجال عمل أبي سلام معتقدة أن أباها لم يلاحظ رسمها، أما أبو سلام فكانت طبعًا تتعمد أن يهتم لأمرها، أخذت تعتني بشكلها البدوي محاولة التشبه بالمتمدنات كأن تتلطخ بمساحيق التجميل كيفما اتفق غير مدركة أنها لو تجملت بالاعتماد على المواد الطبيعية المستقاة من صلب الطبيعة لبدت أفضل، وهو يسرق إليها النظر أحيانًا ليرى حرباء قد تغير لونها. انتبه الكثير من أبناء القرية لما أصبحت عليه، ينعتونها بأشنع النعوت. وأبو سلام صاحٍ لكل ما يجري حوله، يتمنى لو تغيب من المكان لكي لا يقيم مقارنة بين سخفها واتزان أم سلام ولكي تغنيه عن تقليب مواجع ماضيه. فضَّل العيش في مجتمع ذكوري حتى يتمكن من التقليص من حجم معاناته، لكن يبدو أن اللعنة تلاحقه أينما حلَّ. ترى ما الوجهة التالية؟

• • • •

(١٤)

تخرج سلاف إلى الطبيعة، الخضراء دون أن ترى لها جمالاً؛ مادامت تخلو من حضور الحبيب، وهي تمرر كلتا يديها على بطنها المنتفخ وتفكر في مستقبل سلام الأنثى التي ستشرف قريبًا. أمرٌ يشغلها ولا يفارق تفكيرها. أمرٌ يعيد عليها طيف حبيبها، كلما نظرت إلى بطنها، كلما لمست بطنها، كلما أحست بحركة تأتيها سلام في بطنها. أمرٌ يحترق له قلبها وتعجز الدموع المنهمرة من عينيها عن تلطيف لوعتها. ترى أنها تسيء لبدر وتحرمه من حقه الطبيعي في الأبوة.

ساءت حالها إلى درجة تبعث على القلق، تتوهم وصول بدر، تخونها عينها فتراه مقبلاً نحوها وتقوم يثقلها بطنها تتهادى لكن سرعان ما تراه يولي لها ظهره. وتبرق للشيطان لعنات متتالية وتستغفر الله، وتقرأ بعض الآيات وتحاول أن تنشغل بحياكة لباس تحضره لاستقبال مولودها لكن هيهات، تتحرك اليدان بدون قيادة من العقل الذي ركب أجنحة الخيال تحط به بين أحضان بدر: تُرى ما الذي يكون قد حلَّ بك بعدي؟ أتراني في لحظة وآن كما أراك؟ أعلم أنك أحببتني حبًّا عُذريًا، أراك وحيدًا مثلي -عفوًا لم أقصد- حالك كحال التين في العدل، وما يخيفني ليس وحدتك بل ما قد تؤول إليه حالك بعد بعادي. آن

الأوان يا حبيبي أن تتعرف على ثمرة حبنا. رغم كل ما ينتظرني من ألم ومعاناة لن يكون كالذي عانيت منه منذ غادرتك إلى الآن، أطلب الله أن يمنحني الشجاعة الكافية.

عنَّ لها يومًا أن تكالم بدر، فاندفعت؛ لكن سرعان ما أصدر العقل أمرًا بعدم التنفيذ.

- اسمعي لقد أمضينا عقدًا، رغم كونه غير مكتوب وغير موثق فهو عقد يعتمد الأخلاقيات واحترام العهد وصيانته. إذا حدث أن حاولتِ الاتصال به سأعتبر العقد ملغيًا ولن تجديني رهن إشارتك ما حييت. افرضي أنكِ اتصلتِ به، هل بإمكانك الإجابة على مئات الأسئلة التي ستنهمر عليك كقطر السماء؟ أين أنتِ؟ ومع من؟ لماذا رحلتِ؟ ماذا فعلتِ بحبنا؟ أ وقعتِ في حب الغير؟... ؟ ثم لا يلبث أن ينفعل أمام صمتك وعجزك عن قول الحقيقة. وقد تسمعين ما لا يرضيك. قد ينعتك بالخيانة، بالأنانية، بالسادية، بالشهوانية وحتى بالشبقية. وقد لا يصدق أن حملك منه.

- لا.. كل شيء إلا الشك في الحمل، أنا من تعرف بدرًا حق المعرفة.

- لن أسمح لكِ بذلك ما دمتُ مستيقظًا.

- لا بأس، أريد على الأقل أن أعطيه إشارة حياة.

- طيب ما دام الأمر كذلك لا مانع عندي من حيث المبدأ، وقبل ذلك علينا أن نفكر في الإشارة، ولا أرى أفضل من خطاب قصير، ولهذا الغرض يلزمنا رقم هاتفي جديد نستعمله لمرة واحدة لا غير، هاتي خطابك

"حبيبي الغالي أدفع عمري كاملاً مقابل رؤيتك ولا أحتفظ بغير لحظة التملي بنظرة إليك".

- هذا خطاب دسم جدًا، فيه من الحمولة ما يشحنه بقوة تمكنه من تقليب الدنيا رأسًا على عقب ليصل إليكِ، لا أظن أن هذا ما ترغبين فيه. أقترح عليكِ خطابًا يوهمه أنكِ نسيته ولم تعودي تهتمين لأمره.

- ما هو الخطاب؟

- ما هو إلا كلمتان اثنتان: "سامحني كثيرًا"

- أهذا خطاب يُبعث للحبيب؟

- من قال خطاب يليق بالحبيب؟ خطاب يبعد الحبيب، أتريدين له بعد مرور كل هذه المدة أن يعود ليعيش على أمل الوصال؟

أطرقتْ دون أن تنبس، واكتفت بإشارة تدل على موافقتها على الخطاب. ثم عادت لعزلتها، تسجن نفسها في قفص من ذكريات:

- حالة أرغمت على معايشتها، منذ سحقتني تحت ثقلها، يعمل تفكيري جاهدًا يتحاشاها، يندس؛ يخفي رأسه في الرمال. تستبد بعقلي، تتملكه في يقظتي وفي نعاسي، إذا فازت به عيني

للحظات، أقرأ كمدي في أحلامي وقد كتبت بمداد الرحيل، على الجدران، على السقف وأنا مستلقية على ظهري، في صعود ونزول بين السقف وضيق الأفق في شساعة فضاء قمقم زنزانة الذكرى. أقطع فوضى ممراتها تائهة؛ أطأ أدغال اللظى، أمشي في خمائل الجمر، تطاردني أطياف ماضٍ من خلال أعذب لحظات انس عفا، حاكت حوله الأيام نسيج هجر استحال ذكريات حب موؤود، شلَّ حركات حياتي حول معصمها أغلال علاقة كانت يومًا قطعة من الجنة:

استيقظ ملفوفة في ظلمة النوى. أعدو في زنزانتي طريدة الذكرى. أحمل مصباح بصيرة ثكلى. تكاد تنطفئ تحت عصف رياح تضارب أوضار الهوى. وقصف رعودها الصماء، في زنزانة أسر أبوابه موصدة، غابت كل أسباب التواصل، والروح في قمقم في بحر الصد ملقى. وأرجاء القلب بالوحدة حبلى. والذات يؤثثها ارتباك فاق كل فوضى. جحيم أحال ما كان أُنسًا أشواك صبار وأوراق خريف تئن في الممشى. وهول القطيعة يذبل روحًا في هوى من أخلص غرقى. انسحبت الطمأنينة مطرقة والاضطراب يطاردها حتى غاب الرجاء ولاح صراط اليأس في الفضاء. أستعيد شريط هواي وقد رتبت الصور انفعالات من أفقده النوى والصبابة العقل والمنطق والنهى: لطف ورقة... لحظات خصام في بحر من الغضب... فطام... طلاق بالخمس... وإلى الأبد... "هبوط من الجنة إلى مصر".

أسلط البصيص من نور مصباحي على جدران أيام غدت رسمًا وطللاً، فينتصب عليها جداريات من خلق زمان علي جار؛ قلوب مرشوقة، تخترقها حراب، لا زالت تقطر دمًا، به كتبت آهات قلب مزقه سيف بعد زفيره مكتوب بعبارات الهروب بلون رماد حب أحرق؛ بلون رماد طائر العنقاء، وعبارات الود، وآهات الشوق نقش لا يبلى، كتاب فصوله بالألم حبلى، كل صفحة حكاية حب بطلها جور قدري، جنوده جلد سياط ووقع نبال ووخز ذكرى. عقاب مذنب يلحقني، كأني من في الرحم قتلت الهوى. وأنا من في قلبي أحمل الحب ميتًا، أحضنه كما تحضن الأرض أبناءها الموتى. في زنزانة الذكرى، استعيد عهدًا قطعناه على نفسينا معًا في أويقات الأنس والرضا، لما مشينا كطفلين من كل رقابة أفلتنا على رمال شاطئ لنا فيه ألف ذكرى، أحمل حذائي خفيفًا وأمسك بطرف جلبابي، خشية أن يبلل باليمنى. وكما يشد طفل جائع بثدي المرضع، أمسك بيده اليمنى، أتعمد المشي في الماء على كل موجة لما تنكسر وتتلاشى، فيتهذب الرمل ويصقل بعد أن كان نتوءات بفعل ما تخلفه الأقدام من علامات تسودها فوضى: "متى تخاصمنا.. متى افترقنا، مهما كانت الظروف، في الموعد المعلوم في ساعته ومكانه يكون اللقاء."

وإذا رق الكرى لحالي وساعدني على طرد السهاد، أجدني فريسة للذكريات وقد لبست ثوب الأحلام فلا أرى إلا علقمًا

يسري في شريان حياتي، وأنا أخت عشق، سجينة قضبان أهداب عينيه، وأسمع لفؤادي صراخًا يشق صدري وأنينًا له بين الضلوع رجع، ثم يخر صريعًا فألقي به في نار الجوى، أهيل عليه صخرًا من ظلمة. أتيه بلا حب ولا وصال أحيى على خلاف ما سنته الطبيعة منذ الأزل، لا أجني سوى ثمارا من خراب، افتقد هوية الإنسان، وقد أضعت مني خمرة الحان، ومفصود الدنان وكل أسباب الحياة والأوتاد. فألقيتني من شرفات الحب في أعالي أفران الهجر والبعاد. شأن من على المعاش أحيل قبل الأوان. وهو لا يزال في غمرة الحياة بالحب روحه مفعمة والقلب جذلان... الآن أجد القلب مثخنًا بالطعنات، وساعدي مبتورًا يلتمس المسك براية الحب وقد كنست، ما أصعب أن تمد ذراعك عرْضًا على سرير الحياة وقد عهدته زوجًا، لتكتشف يومًا أنه أصبح فردًا رغم اتساع مجاله. سرير عفت رسومه. فلا البيت ولا الدار ولا الفخذ ولا البطن ولا العشيرة ولا القبيلة حالت دون أن تعصف به الرياح والأمطار. ما أعمق جراحًا يخلفها اقتلاع الأوتاد، تدير كأس السهد، ترسل جيوش الأرق، حتى غدت الغفوة ترفًا، والسنة أملاً، والنوم أمنية والسبات أمرًا مستحيلاً. أصبحت ديوان دموع يرثي رحيل الحب. والحال أشبه بشموع في الظلام تسكب دمعًا تبكي موتها البطيء في الظلام في منأى من الحبيب.

انتصب الجدار سميكًا في وجه الضياء، فعلمت أن لا قيمة للنور بلا ظلام، فلولا ظلام الجدار ما أحسست بطعم نور افتقدته، رأيتني نهرًا حاد عن مجراه وافتقد الهدير، وجدتني زهرًا ذاويًا افتقد كل أريج وعطور، وظلاً بلا جسم عليه أو حوله يدور. رحلت شمسي، وقد دعت الظلام يسود، إلى مشرقي أقسمت أن لن تعود، وقد ضاع مني جورًا من بعد الخالق كان لي معبودًا. شكوت حالي لزماني ألتمس الإنصاف، بل أقل الخسارة، لعله يرد علي بعضًا من روحي، يلطف زفيرًا شلول مهجتي، يجد لي واحة في صحراء العذاب، ما دام الحضن أضحى من المحال أو مستبعد المنال. لعله يخلصني من لهثي خلف سكينة عادت سرابًا كلما دنوت اختفت خلف الجبال. كم صرخة أطلقت، لا رجع ولا صدى، فقفلت من الخيبة أجر أذيالاً. سألت الفنجان عن حالي، وقال في ابتسامة مدغمة في الخبث والسخرية: أنتِ في الحب هاوية.

ويعود الأرق وقد استجمع قواه بعد أن أُرغم على أخذ قسط من الراحة، فيزيح السنة من طريقه ليستبد بي من جديد، ويسلم زمام أمري لنار الذكرى، فيدعوني الجنون إلى طلب الاستقالة من الحياة فلا أحظى إلا بالرفض؛ والتوقيع: "عن أمثالك لا تستغني رماح الذكرى"، وكأن الكل يتواطأ ضدي. فكيف بمن كان يجمع أرداف الحب بقبضة اليد فأصبح عن تطويقها بالذراعين يعجز، أن ينعم بطعم الحياة؟ أليس التذكر جرعة من

علقم، بل من سم ناقع يسري في الشريان أراني رفقة توأم روحي، نتشارك المصيف، والجسد يجود بالعرق قطرات، تساقط على الشريك بردًا وسلامًا بل لا نبالي بملوحة مذاقه مخلوطًا بالرضاب وروحانا يعلوان بل يعرجان في أناة، ثم يعودان مستمتعين بالهبوط أكثر مما أحساه أثناء الصعود.. نفس الغفوة تنقلني إلى المشتى لتفعل البرد ما فعلته حرارة المصيف، رغم زرقة لون الشفاه، وارتجاف الأطراف واصطكاك الأسنان.

لم أشأ أن أستيقظ لأجدني ملقاة على أرض واقع صلد. وتذكرت تذمر حصان المتنبي في شعب بوان: "أعن هذا يسار بي إلى الطعان" وأعدت قوله "أعن بدر يسير بي القدر إلى وداع". سهام ذكريات لا تبلى رسومها !.

لو كان الموت من سرق مني حبيبي لبكيت، أرثي ضياع جنة طالما تعهدناها، حتى أوشكت على الإيناع، بل كادت أن تثمر، ولألقيت ثقل أوصابي على الزمان قد يريحني منها يومًا. لكن الأمر اختلف لما بدون سابق إنذار، تبخر الحلم وعاد الحب وقد عبثت بسحره الأقدار مجرد سراب. وكأن قوة خارقة في لمح البصر انقضت خلسة، ومحت كل ما كان له من آثار. ما صدقت أبدًا ما يحدث من هجر، وصرت ألتمس الأعذار لأقنع نفسي بعكس ما يحدث، وأنا أبرق للشيطان اللعنة المجانية تلو اللعنة،

أُوهمني أن الفصول في كل مشاهدها كانت واقعًا وليست عروضًا انطلى علي زيفها.

• • • •

(١٥)

- "سامحني كثيرًا"

رسالة قصيرة، بدون مقدمة ولا ديباجة ولا حتى لقب أو صفة للمرسل إليه كانت تعيدها قبل القطيعة مرات ومرات لا في رسائلها فحسب بل في حديثها إلي. رسالة جد مقتضبة، لكنها مشحونة بشتى المعاني، مفعمة بالانكسار والإحساس بالذنب المدغم في العجز، وبالإساءة، والتيئيس. لم يكن للاعتذار في قاموسها حضور، مهما أخطأتْ في حقي، كانت تحاول راكبة مختلف السُبل أن تحوِّل إساءتها في حقي إلى تصرف مقبول ومعقول، وإذا ما انتبهتْ أن تبريرها واهٍ؛ ادعت أن تصرفها جاء نتيجة رد فعل على سلوك بدر مني. تتعصب لموقفها وإن علمت أنها على غير صواب. لا أذكر أنها اعتذرت يومًا طيلة الأيام التي جمعتنا. أنا الوحيد الذي بإمكاني تقدير مدى المعاناة التي مرت بها جراء الحرب التي خاضتها ضد نفسها حتى تقنعها بمثل هذا السلوك الفاضل. رغم ذلك فهو خطوة جبارة رغم مجيئها متأخرة، ورغم خلوها من مضمون الاعتذار.

"رسالة من سلاف! من حبيبتي غير معقول! الحمد لك يا رب! لا زالت على قيد الحياة! لكن أين رقمها الذي تعاهدنا ألا نستبدلهما مهما فعلت بنا الظروف؟ سأعرف كل شيء في حينه، المهم أنها اتصلت".

طلبها عن طريق الرقم الذي حمل إليه الرسالة، وجده ميتًا كذكر النحل. حاول الاتصال مئات المرات ولا زال يحاول

"يا إلهي، لقد عانيت من الفراق ولا زلت، وها هي تحرك السكين في الجرح وقد تعفن. عندما أضع في اعتباري عنادك المشهود، وعدم الاعتراف حتى لقرارة نفسك بإيذائك للغير إن عمدًا وإن خطأً، يتضح جليًا أن ما حملك على الاعتذار، أو بعبارة أدق ما حملك على تمني الاعتذار، حاجة في نفس يعقوب لا علاقة لها بالندم، فما رأيتك يومًا تندمين على سلوك إساءة بدر منك. لقد وجدت العبارة جاهزة معدة خارج الإحساس، كان عليك انتخابها من ضمن العديد من العبارات، والاكتفاء بنقرة على النقال. لو كان خطابك نابعًا عن إحساس صادق لعلمت أن ما أتيته من هجر مفاجئ، بدون أي سبب، وبدون سابق إعلام أثره على النفس يتجاوز تلغيم حياتي وتعقيد وجودي الحاضر ليلقي ظلاله على مستقبل أيامي، لكنتِ بحثت على صيغة أصدق تعبيرًا. فما ارتكبتِه في حقي وفي حق علاقتنا وحتى في حقك أنت لا يقدر على مسامحتك عليه أكثر الخلق حلمًا.

لو كنتِ قد بذلتِ مجهودًا بسيطًا وكلفتِ نفسك بعضًا من التفكير لقلتِ: "هل ستسامحني يومًا؟" ففي عبارتك يرتبط الالتماس بالماضي، يعني أنكِ تتمنين أن أسامحك على ما أتيته في حقي من فعل الإساءة في الماضي - وإن كان فيه اعتراف صريح بالذنب- دون أن تلقي بالاً إلى أن إساءتك باتت من الماضي وما

نتج عنها من معاناة حينها لم تنته، بل على العكس خطورتها على النفس تزداد حتى أضحى عذاب اليوم أهون من آلام الغد. إذا افترضنا عبثًا أني سامحتك عما سببته من عذاب الأمس وعذاب اليوم، فكيف يمكن أن أسامحك على ألمٍ لم أعشه بعد ولا علم لي بحجمه، إذا شاء المرء أن يسامح فأقل ما عليه أن يفعله هو أن يدرك عما سيسامح. فمن يسامح في مثل هذه الحالات شأنه شأن من تعرض لحادث سير خطير، وقام على رجليه ونظر إلى اليمين وإلى اليسار فوجد نفسه معافى فسامح، وفي الليل أصيب بنزيف أودى بحياته. كل ما أعرفه أن عذاب الغد لا يمكنك تقديره إلا في حينه. فيوم العيد، يستعد الناس لفرحته، ولا يألون جهدًا في إعداد كل ما يلزم سواء ما له علاقة بالجانب المادي أو ما له علاقة بالجانب النفسي حتى تتحقق البهجة من وراء الاحتفال. وفرحة العيد لا تتحقق للفرد إلا إذا كان محاطًا بالأحبة، ولكل من هؤلاء موقعه الخاص من القلب، والكل يعلم حجم المساحة التي يحتلها الحبيب من هذا القلب. فرحة العيد حاضرة بحضور الأهل والأحباب، لكنها تظل ناقصة. وسط كل هؤلاء وهم يتبادلون التهاني، ويتبادلون الهدايا، وسط هذا الهرج والمرج، أركب سحابة، تخترق بوابة الزمن نحو الماضي، لأعيش لحظات أجتر فيها أويقات الهناء رفقة الحبيب بمختلف مناسبات الأعياد، أسلم الهدية وأستلم في حضور القبلات والعناقات، والعيون تشع بريقًا يشي بدفين

الصدور، والوجوه صبوحة مشعة يترجم تورد خدها سكينة النفس وهناءها... أعود إلى رشدي من شرودي على إثر الإحساس بيد توضع على كتفي، تسحبني برفق إلى الخلف لتهنئني، وتسألني عن شرودي في يوم كهذا، ألتفت معتذرًا أبادلها التهنئة، كانت قد أعدت مسبقًا بعض الجمل استعدادًا لتتجاذب معي أطراف الحديث، رغم أني أظهرت نوعًا من البرودة في محادثتها وجدتها تبذل مجهودًا لتواصل الحديث، وبدون إذن مني وجدت ذهني قد حلق بعيدًا وأنا أقول لها في سري: "لو من عوالم الحسن أهديت النجمات، لجعلت منها أثاثًا وعقارًا لقصر حبي وديكورًا، لو أحاطت بي في مجلسي كل غيد الدنيا والحور، لجعلتها صورة لغلاف كتاب حكاية غرامي عبر الدهور. بل لاتخذت حسناهن للحبيب وصيفات في كل العصور".

يا من لخصتِ عذاب الجحيم الدنيوي في كلمتي "سامحني كثيرًا" هل بكل بساطة تجاوزتِ تلقي تهنئة العيد الخاصة؟ ما موقف القلب ووردة عيد الحب تذبل بين أنامل يبللها العرق جراء ارتفاع ضغط الدم؟ وما الذي ينتابك وقد قادتك خطواتك إلى شارع الورود؟ أ تسرع الخطى هاربًا من إحساس رهيب؟ أم تتوقف لحظة تنتقي عبثًا وردتها دون أن تطلبها من البائع، وتمضي؟ ويلاحقك قائلاً في خبث مضمر: هل وجدتِ بضاعتنا لا تفي بالحاجة... ؟

لا زلتُ عاجزًا عن استيعاب ما يجري، لا زلتُ في عيد ميلادي، استقبل الأصدقاء دون أن أحفل لما قد يحملون من هدايا، ولا استطيب عبق الأكاليل بين أيديهم، كلي وبكل أجزائي المرئية والمضمرة معلق إلى جرس الباب، حتى رقت ساعة يدي لحزن عيني. أنتظر سماع الرنة السحرية على النقال، وكم سمعت الليلة من رنة لكن كلها لا يخفق لها القلب. لم يتسرب اليأس إلى النفس إلا قليلاً حتى وأنا أودع الأصدقاء في ساعة متأخرة من الليل، أشحذ من النقال صوتًا ما تبادر إلى ذهني يومًا أني سأفتقده. ويمضي أول أيام العيد، ويليه ثاني أيام العيد، وبعدهما ثالث أيام العيد، حتى غدت الأيام كلها ترقبًا. حالي في مثل هذه المناسبة أشبه بحال الحداد الذي ظل العمر بعد كل ضربة على السندان يجري في اتجاه الشباك يرقب عودة الحمامة الزاجلة تحمل إليه رسالة من الحبيب، ولا يحفل إلا بالخيبة تلو أختها. كيف تجرئين على مثل التماسك ذاك؟ أما يوم عيد ميلادك، وكنت منذ فترة خلت قد لففت الهدية في ورق من شغاف قلبي، وربطها بشريط يترنم بأنغام عزفتها أيام الأنس. أما الهدية فداخل قفص لن تريها إلا أنت. وها هو هجرك يحول دون فرحة أصبح الطريق إليها وعرًا ومسالكه يكسوها شوك الصبار. ليلة العيد عدت على أعقابي، فمنحت الهدية مكانها في الأرشيف بعد أن بللتها بل سقيتها دمعات يسيرة، أتجرع ألما أقسى من أن يُسامح عليه.

علميني النسيان! فكلما حملت نفسي على نسيانك نسيت كل ما حولي إلا أنت تظلين مستبدة لا تغادرين ذاكرتي، تحتلينها بلا منازع. أنسى مآربي، أنسى ذاتي، ولا أستطيع التخلص من أطيافك. أصبحتُ أفكر في سبيل قد يريحني من عنائي؛ولن يكون سوى عن طريق المقايضة: أسامحك مقابل تعليمي نسيانك أو إيجاد طريقة لمحو ذاكرتي، شريطة أن لا يكون ذلك داخل استوديوهات السينما المكسيكية أو التركية. كم وطنت النفس على نسيك لكن رفضها كان أقوى ما دامت لم تجد مبررًا للهجر. ولا زالت كلما حملتها على النسيان تطالبني بالإقناع، عن طريق الشواهد والأدلة والبراهين، وهذا ما يعوزني، ومع ذلك لم أستسلم.

أسرتني بعهود، لم تقوي على صيانتها، لما عنها صرفت الود، أسرت روحي، وألقاها جفاك في دهاليز الذكرى، حتى غدت عن كل حسن سواك تعمى، وقد كانت الدنيا دانية القطوف، والفرحة قيد اليد. عيبي الوحيد أني لم أتقن التنقل بين نوادي الهوى لما كان الأمر متاحًا، لقد أخطأت في وثوقي بزماني إلى حد الغرور، فلم أوثق حبي، متجاهلاً أن العقود، وضعت لتحمي من الجنون، فالمرء حرباء لا يرضخ تلونه لغير القانون. فكمال الحسن واستقامة الخلق وسحر النفس مكنونات أنفس من لؤلؤ

ومرجان إلا أنها عادت عملة بائرة في سوق راجت فيها متعة الأجساد وشاعت فكرة: الأكل من شتى صنوف الأطباق.

أتدرين أية إساءة ارتكبتِ في حق من كان إذا منك دنا يسحرك ريح أنفاسه، كأنه عبق من روض جنة، وتفتنك سهومة عينيه وقد هوى وانحنى يقطف زهرة من حديقة اللمى؟ هل انتبهتِ أنك ضيعتِ قلبًا ماله سوى الحب روحًا، صاحب حاجة لا يرى غير حضنك له مأوى. وما قدر سوء العاقبة شأن فراشة الليل يستهويها نور الشمعة وعن لهيبها تعمى؟ قتلتني بغير حق، حرمت أيامي؛ حاضرها ومستقبلها من نعمة الهوى، وقد علمت باستحالة عيشي دون نسمة هواك. أفرغت قلبي حتى اجوف وفرغ، لا يحفل ببنت أنثى، لا يرضى بديلاً عنك، ولو نازعه الهوى. آه، لو علمت أمي بحالي لحبت تلتمس لي الشفاء عند "فقيه" يخلصني من لعنة الإمساك ويغمر قلبي بالحب، وتعود بـ"حجاب" أعلقه تميمة، وآخر ينقع في لبن أشربه يغرس فسائل حب غيرك في قلبي.

كيف أسامحك، يا من أربكتِ حياتي، يا من عقدت وجودي، بل شكلت الخطر على كل ما ومن حولي. كيف أسامحك وقد صنع مني هجرك مجرمًا في حق ذاتي التي أجرمت في حق البراءة: حاولت دون جدوى اجتناب المسالك التي عبرناها، وأنت خير من يعلم أن كل نقطة قطعناها معًا لنا فيها ذكرى خالدة. كلما

خرجت رأيتُنا معًا وطوقتني الذكرى وشردت حتى أوغل في الشرود. لما عدت وجدتني ممددًا على سرير المستشفى ملفوفًا في قماش أبيض كمومياء، وساقاي معلقتان. أبديت رغبة في الحركة، فُمنعت من طرف أحدهم. سألت عن مقامي فعلمت أني في المستشفى، على إثر حادثة مرور مروعة، تعددت ضحاياها، وأسفرت عن خسائر مادية معتبرة، تمثلت في تحطيم حواجز فاصلة بين الاتجاهين وسيارتين أرغمتا على مغادرة المسار هروبًا داخل الحقل دون إصابة ركابها. حسب شهود عيان كنت أنا - بل أنتِ، لا بل كلانا- المذنب فيها. رغم الطريق المزدوج، رغم الطريق العريض، رغم منبهات السيارات، واصلت سيارتي جموحها وانحرافها في غياب بال قائدها، لتقطع الطريق عرضًا نحو الاتجاه المعاكس، فحدث ما حدث. فراحت تحصد كل ما وجدته في طريق انحرافها. هذا ما كنت عليه قبل استلامي خطابك. أما اليوم ففي كل ذكرى أجد مشيرات، كان الحب قد أعماني عنها، ولا زال لحد الآن يحرض النفس ضدي حتى تقتنعني بالعكس. وهذا جزء من تلك المشيرات المفعمة بالدلالة.

لم أفكر يومًا أن ما كنت عليه من ضعف حينذاك قد يغدو في يوم من الأيام جبنًا يحملك على الانسحاب المفاجئ، وأنا من لم أثق بشيء في الحياة، بما في ذلك نفسي، كما وثقت بحبك، واعتبرت ما يحدث معك ساعتئذ مجرد وقفة تأمل لتقييم تلك العلاقة التي وجدتها جامحة إلى أبعد حد.

أما اليوم، وأمام بلاغة رسالتك رغم كل إيجازها، التي تكشف عما تحمله في ثناياها من اعتراف صريح بإساءتك في حقي، وهذه الإساءة لن تكون غير ارتماء في أحضان غيري، تخونين ودي وتنقضين عهدي. لا أدري كيف كنتُ أستثني حبك من كيدهن، أ لأن حبك أعماني؟ أم لكوني وثقت بحبك أكثر من ثقتي بنفسي؟ أم لأن الحب عاطفة مقدسة يُباح فيه السجود؟ أم لطبيعة تكوين متأثر بحكايات وأساطير الحب القديمة، وعدم الالتفات للواقع وافتقاره للعلاقات الروحية السامية؟ فغاب عني أن حب الشريك قد كان مجرد اندفاع عارم نحو غاية جسدية نال حظه منها وحقق ذاته من خلالها ولم يعد هناك سبب يشده إلي؟ لما أقبع في زنزانة ذكرياتي، أراه مالك رقي ومن عرش قلبي اعتلى وعليه استوى، حتى صار له عبدًا تابعًا، حتى مزقتْ أحشائي سيوف الأسى، ووقعت فريسة للأسف يمتص دماء مستقبلي. لم يعد للأسف ولا للندم تجاه من باع القداسة بأبخس معنى.

• • • •

(١٦)

ما كنتِ كالنساء،
كنتِ نسيجًا وحده،
يا من وأدْت "سلام" :
نسلَ حلمي، السعيد
يا قاتلاً كائنًا قد
صار بعمر الوليد
وا من قبرتَ الحب !
لك مني - على مضض- ما تريد:
ارحل حبيبي سريعًا
إنَّ شوقًا
شدك للحضن الجديد
ارحل حبيبي، ففراقٌ لنا محكومٌ بتأبيد.

إن تكن اغتلتَ هوانا
لما طعنت من الخلف ودًا
وتلفتَ حيث ترى الحياة،
ففي نهاري ألف مرة أُقاد بريئًا
نحو مقاصل الهامات

وفي الليالي، وقلبي مثخن
أنزف في أسر الذكريات.
أرحل حبيبي فقد
أصبح حبك أجوف
يفصح عن ركيك إحساسات.

حبك يغمر قلبي
حتى وإن أزمعت هجري.
لكن إذا
من الشغاف شلته
وما غدا في الشرايين يسري
أو موقعًا، أحللته ثان
غادر حبيبي..
واحتقب.. رجاء ألمي؛
حتى ولو ألقيته
حيث تنوي الهروب
حتى ولو أسكنته
خلف الثغور
حتى ولو أغرقته
في قرار البحور

حتى ولو أنزلته
عواصم الرياض والقصور
سيصير أشرعة من ظلام
لمركبات من ديجور
يُصلي الفؤاد عذاب كفور...

معذرة،
فلم تعد ثقة، تؤتمن
ولو على
ألمي، وشقائي، والأسى
إنَّ من خان العهد
كما أرى
لن يكون بتقديري سوى
شبه تمثال يُنحت في القذى
أو نابًا من شبق
مزَّق ثوب بكارة الهوى
خان وصالاً، وجبانًا تولى
إذا زماني رماني بالشقاء
فلم استنجادي بمن أحرق ما
كان من أسباب الوفاء ؟

فاستذنب الأقدار والقضاء

وهو العارف أن ادعاءه شتْمُ ذكاء.

لمَ عُدت

ومن الهجر انتصب الجدار

لم عدت

بعد غياب نور الوصال

لم عدت

وقد خبا كل أمل في النهار

لم عدت

تذرو ملحًا

وجراحي تشحذ حظ اندمال

لم عدت

وكنتُ قد كنست الفؤاد

جمَعت الرماد

لطفت هجير الغيرة

ولظى البعاد

أملي أن أتلافى

بعثًا جديدًا لهوى الفؤاد؟

بحق رب الفلق

وإله العباد

وكل ما كان بيننا من وصال

في هوانا وبعاد،

ارحل ودعني وحيدًا

في محراب انكساري

أستخُرُ

لك ربي أسأل

الوردَ ممشى والغطاءَ رضا

متضرعا

قد يجيب الدعاء من مفتقد الكرى.

• • • •

(١٧)

ظلت سلاف سجينة حزنها بعد وضعها لا تغادر زنزانة ذكرياتها إلا إذا ناغت صغيرتها للحظات قصار ثم سرعان ما تعود إلى انكماشها، أخذ التعب يرسم حضوره على وجهها فتراها إن هي همت بالقيام استعانت ببركة كل الأولياء والصالحين، إن مشت مسافة طلبت فترة استراحة تستعيد فيها أنفاسًا هدرها جور زمانها عليها. أخذت نضارتها تذوي، وقوتها تخور إلى أن حدث ما كانت تدعيه أمام وداع. انزلق فمها إلى غاية أذنها، وأصبحت تفقد صوابها، لا تعقل أحدًا ولا تهتم لأحد، بما في ذلك الصغيرة.

لأيام تقوم ببعض الحركات تحصيها عائلتها من حولها، وكأن طفلاً صغيرًا أخذ يثير انتباه ذويه من خلال حركاته الأولى، مع اختلاف في وقع الحركتين على النفوس، فقدت حيويتها، شلت أعضاؤها كلها، فقدت القدرة على الكلام، ليس لها من علامات الحياة غير نبض ضعيف ونفس أضعف. و"وداع" لا يفارق غرفتها في المستشفى منذ أن نزلت بها، إلا لحاجة ملحة، أو غرض جد مهم، يسهر الليالي الطوال إلى جانب سريرها، أنفق أموالاً على أمل شفائها، ينقلها من مصح إلى آخر، من مدينة إلى أخرى حيثما أشاروا عليه أو على عائلتها، دون أن يتوانى،

دون أن يكل أو يمل، وهي لا تستجيب لأي علاج، أحاطها بعناية فائقة أثناء مرضها، لما كانت لا تعي ما يدور حولها..

والحال هذه، وقد مرَّ على ملازمتها الفراش وقت طويل، أصبح الكثير ممن حولها يفكرون في طرق العلاج التقليدية وحتى البدائية، وكأن ذويها يحسون بنوع من اليأس من الطب الحديث الذي يعتمد على العقاقير المهدئة ذات المضاعفات الكثيرة، واتجهوا نحو عقد أملهم على المداوين والمداويات. فمن كبريات المستشفيات في البلاد إلى أعظم المصحات الخاصة إلى أشهر المداوين داخل الجهة، ها هي الآن تحط جثتها المنهكة بإحدى المناطق القاصية بالبلاد حيث أحد المداوين وقد تعدت شهرته الغرب الإسلامي لتغزو الشرق الأوسط، ما دام عنوان المداوي التقط من إحدى المحطات التلفزيونية الشرق أوسطية. لم ترافقها في هذه الرحلة غير والدتها وهي رحلة تجاوزت نصف السنة، كان "وداع" حين يتعذر عليه السفر يبعث قدرًا من المال لتغطية المصاريف الكثيرة.

أخضع المداوي المريضة لجلسات عدة لم تتجاوز نتائجها التغلب على صعوبة التواصل نظرًا لحالة المريضة ومحاولات المداوي المتكررة لمعرفة بعض الحقائق المرتبطة بحياة المريضة من خلال أمها بغية الوقوف على حالتها وفهم الأسباب التي قد تكون وراء هذه الحالة، وكأنه طبيب يستعين

بالملف الطبي لمريضه، قبل مباشرة عمله، والشروع فيه. لكن الأم لم تكن تسمح لنفسها أن تفيده بما يسيء لابنتها.

يعتمد في كسب ثقة المرضى وذويهم على القرآن الكريم ملاذ المسلمين، ولا أدري هل يعتمد نفس الطريقة حتى مع غير المسلمين من مرضاه. إلا أن توظيفه يتم بطريقة شبه حديثة، تعتمد على التقنيات التي توصلت إليها التكنولوجيا في المجال السمعي البصري: يضع للمريض خوذة، بل سماعة يوصل إلى سمعه من خلالها صوت أشهر المقرئين المسلمين يتلون ما تيسر من الذكر الحكيم، حتى في الحالات التي يكون فيها المريض غائبًا عن الوعي، وكأنه يحشو رأسه بكتاب الله. يعمل على انتقاء الآيات التي تصلح لهذا المريض أو ذاك بعناية الخبير المحنك، ومقابل المريض شاشة تعرض أشرطة موازية لما في الآيات الكريمات من محتويات، ومن حين لآخر يضع إصبع المريض بين أصابع يده اليسرى وباليمنى إبرة، يقرأ في سره بدون شك آيات من كتاب الله العزيز، يطيل القراءة ويد المريض مرفوعة، إلى مستوى صدره حتى يبدو لأبسط الناس أن الدم القليل المتبقي لم يعد قادرًا على الصعود، حتى فرغت منه الأنامل فغدت صفراء اللون، وهو في غفلة عن ذلك.. ثم يبسمل ويستعيذ، وبالإبرة قيد يده يخز أصابع اليد الخمسة بدءًا بالخنصر، وانتهاء بالإبهام. وفي اليوم الموالي يفعل باليد

اليمنى ما فعله باليد اليسرى، والحكمة هي، بعد امتلاء الرأس بالوحي الرباني، يشرع في الانتشار نزولاً في اتجاه الأنامل، ومع خروج الدم من الأنامل يخرج المرض تدريجيًا تحت قوة دفع الآيات. إلا أن ما لم يخطر لذكاء المداوي هو أن الأجدى أن يخز أصابع الأرجل... وهكذا يستمر العلاج لشهور، وطول الفواتير يقاس بطول المقام.

مرَّ زمنٌ والمريضة لا تستجيب للعلاج، وقلق الأم يزداد يومًا بعد يوم، ومخاوفها تزداد كلما أطل عليها شبح موت ابنتها في هذه البلاد البعيدة، ما أصعب أن تستيقظ وبين يديك جثة ابنتك هامدة.. للتخفيف مما يضنيها تلجأ من حين لآخر لمكالمة زوجها تبكي حال ابنتها المزري، أما هو فيحاول جاهدًا أن يتصنع صبر الرجل الصلب يخفي ضعفه خلف كلمات تدرب عليها سلفًا استعدادًا لهذا الموقف، على أمل أن يمنح زوجته قوة معنوية قد تساعدها على التحمل.

... وهي جالسة تنظر إلى ابنتها جثة هامدة، لاحظت أصابع يدها تتحرك، ولم تتمالك نفسها فصاحت: استيقظت.. أيها الفقيه تعال، ابنتي أفاقت...

• • • •

(١٨)

وأنا أؤثث لكِ قلبي، أفرشه مطارف وحشايا، أعد الأرائك، والكؤوس الدهاق، أنضد الورد لك ممشى، وأفصد دنان حان الجنة، أجري الماء سواقي وجداول وغدران حول أغراس الحب، كنتِ تلتمسين مني وفي ضعف الحريم ألا أهجرك وهذا التماسك بدون زيادة ولا نقصان: "يا حبيبي، رجائي متى تسببت في إغضابك أن يكون لقاؤنا في اليوم الموالي في الموعد الثابت ساعةً ومكانًا، لكي لا ينتج على الغضب تباعد قد يودي إلى القطيعة، وأنا لا أقوى على العيش بعيدًا عنك، أتعدني بذلك يا حبيبي، هيا.. رجاء.. عدني ! أخالني فرخًا - لا يقوى على التحليق- وقعت في شرك من أغرقني في بحر هواه، علمتني من حب الحياة ما لم أعرفه من قبل، أغرقتني في نعيمها، عببت منه فلم أرتو أبدًا، كمن يشرب من ماء مالح، كلما شرب زاد عطشًا. أعتقدني وقعت وفات الأوان. لقد أوقعتني في"الجيب الصغرى" حتى أصبحت أتمنى لو غار يوم لقائنا الأول في حر الجحيم، أتمنى لو امحى من التقويم".

أغضبني ما صدر منك، وما لبثتُ أن انفجرتُ: "لن أسمع منك بعد اليوم ولن تريني هذا الضعف، أمقت هذا الضعف. لم يكن الجيب يومًا للحبيب؛ الحبيب من اعتلى عرش القلب، ولم يرض

بما دونه مربعًا له؛ الحب عقد يوقعه قلبان، توثقه روحان، فمن العار ادعاء الحب إذا كانت الغاية الاستحواذ على قلب وروح من ندعوه بالحبيب واستعبادهما، لا عبودية في الحب ولا رق، ولا غالب ولا مغلوب".

وأنا من لم أثق بشيء في الحياة، بما في ذلك نفسي، كما وثقت بحبك، ومن اعتبرت ما يحدث منك مجرد وقفة تأمل لتقييم تلك العلاقة التي وجدتها جامحة إلى أبعد حد، لم أفكر يومًا أن هذا الضعف منك سيتحول يومًا إلى جبن يدفع بك إلى الانسحاب، بطريقة من لا يمت إلى التحضر بصلة.

يبدو أن التقدم والحرية بالنسبة لكِ بات حديثًا من الماضي، تحلمين بمستقبل حر دون أن تتحرري، تعيشين في الماضي. في أعماقك ترقد امرأة من الحريم ترزح تحت نير العادات والتقاليد والعوائد، مهيضة الجناح لا تقوين على إفراد جناحيك والتحليق في آفاق أوسع وعوالم أرحب،تشرق شمسك من الباب القبلي لتغيب بالباب الغربي، لا تملكين جسدك، تسمحين للأعراف راضية مستسلمة أن تتحكم فيه، حتى علمته أن يصبح عبدًا لعقد ومهر وخاتم وما يتبع ذلك من حلي وحلل وطعام وشراب. أين أنتِ من فكرك التقدمي المعهود؟ أين أنتِ من الحرية الحلم؟ أين أنتِ مما يمليه عليكِ قلبك؟ عودي إلى ماضيك القريب، واسألي نفسك عن مكامن قيمتك، الأكيد كانت قيمة روحية وليست مادية.

أما اليوم ومع كامل الأسف وضعت نفسك موضع بضاعة بيعت في السوق لمن دفع الثمن مالاً قبل الشباب.

ارتسمت في خيالي ذكريات تعود إلى ماضٍ لا يمكن أن يمحي: ما كنت ترجين أن تريني مارًا وأنت توضبين حالك واقفة في الشباك المطل على الشارع في الطابق الثاني، وكان شباك غرفتك الواسعة، لتتملي بطلعتي البهية، وأنا مقبل نحوك فارسًا متميزًا، يعتلي صهوة جواد أغر محجل القوائم، وهو يلوح في سمائك برافًا متوهجًا تارةً وأخرى صقرًا يتربع عرش الذرى الشم. تخاليننني بلبلاً غردا على الأفنان يشدو وعلى ضفاف الشفاه يعزف لحن الرضاب، وفي حقول الحب وبساتين الود ورياض الوصال ماء منسابًا يسقي حبًا صار وارف الظلال، فترين روحك تتهادى وحولها من الوصيفات ما لم تحظ بخدمتهن حرائر الأمم من بنات العز والنسب.

كنتِ تكرهين أن تسبقيني إلى البيت. تحبين أن تجديني منتظرًا مباشرة خلف الباب؛على النحو الذي كنت تفضلين، وفي الحالة التي كنت تفضلين أن تجديني عليها، لا تريدين أن تضيعي كسر ثانية لتبدئي المشهد الأول من فصل، مشهد العناق السنفوني، مشهد الحرارة التي تجتاح الجسد، مشهد الاستسلام حيث يسود منطق الاندفاع على مدى تسع وعشرين درجة يتكون منها السلم تتلاصق الشفاه، وحرام أن يدخل الغرفة قماش حتى

الغلالة، حتى الشعار وحتى التبان، خرق ملقاة على درجات السلم. يبدأالمشهد خلف باب الغرفة مباشرة..... وتتوالى المشاهد والفصول، وتعرض المسرحية بانتظام أسبوعيًا،وكثيرًا ما كانت حاجتها للعرض أكثر من مرة في الأسبوع لكن بشبابيك مقفلة وبجمهور لا يزيد عن "سلام".

وأنا أصحبك في جولة خارج شرنقة حياتك، ترشفين كؤوس الحياة ألوانًا، فترين كل ما حولك ينقاد لكِ والدنيا تدين لك بالمجان والحياة قيد يديك... وقد حملتني على بساط المتعة ملتاعًا، رميتني في فوضى عشق، تسودها أرقى روح أنظمة الكون، وأجنحة من الانشراح علت بي إلى السماء حتى خلت الجنة تدنو نحوي دون ركوع مني أو سجود، أقطف البراعم من حدائق الشفاه. في ظل واحة هواك نصبت محرابًا أتلو فيه صلوات عشقي، على أنغام أوتار القلب.

أتذكرين يوم الحادث، دخلت وأنا في انتشاء السكران، ألثم شفاه الكأس أعب من رضابها وأرشف سلافها، دون أن تتمنع بل تقبل على شفتي في نهم العطشان. يهزك رجة الغيرة فتقبلين كمنافسة تبذل قصارى جهدها حتى تزيح غريمتها عن طريقها. والحالة تلك تتعاورني القبلات من هنا ومن هناك، قبلة الكأس تهز الرأس فيصدر أمر القائد بالانتشاء فترى المسام ترقص استجابة بل تنفيذًا. أما قبلتك فتثمل الوجدان وتحمل العقل لعالم

الأحلام، حملتماني على توديع لبي، إذا ألتفت نحوها أراك تديرين وجهي نحوك، أمد يدي نحوها فتضربين عليها فعل أُمٍّ تمنع صغيرها من مس النار، وهي في مكانها قوتها في لونها بل في طيب ما تبعثه من عبير يأسر الخياشيم فتشفطه لتمرره عبر الخلايا المترنحة التي تطلب المزيد. ولما استوفيتما مني، نامت وقد أفرغت روحها في روحي فأصبح مركبي يقوده ربانان. ، تخلصت منها وشئت أن تتخلصي حتى من المكان حيث بقيت جثة هامدة، فخرجنا لتستقلي سيارة أجرة، ولما رأيتني وقد استبدت بي إذ تركت جسدها ملقى ولبست ثوب جسدي، أدركت أن المنافسة لم تنته بعد وإذا أنتِ غادرتِ انهزمتِ وأنت من لا تقبل الهزيمة. قدتني إلى غاية السيارة وهي تتلاعب بي يمينًا وشمالاً، وأنت تحاربينها، استطعت فتح باب السيارة، وحاولت بكل ما أوتيت من قوة حتى شحنتني وراء عجلة القيادة. لم أكن وقتها في وضع من يستطيع القول كيف لمن قادني بصعوبة أن تسمح لي بقيادة السيارة؟ وركبنا وما عقلت أي اتجاه سلكت، ولا ماذا كان تصرفي معك، ولا رأيت السيارة مقبلة في الاتجاه المعاكس حتى حدث ما حدث من اصطدام، فرت "المقاتلة" دون أن أرى لها أثرًا، لا أذكر إلا ما قلته لك بعد أن رفعت بصري نحوك وتهيأ لي أنك على ما يرام: أسرعي، أنزلي، خذي سيارة أجرة مباشرة إلى البيت ولا تفكري في شيء ولا تهتمي لأمري فأنا بخير كما ترين"... ومع مرور

الأيام عقدت العزم على التخلص من ضرتك، فما استرحت حتى طلقتها.

أكثر من مرات دعوتني وألححتِ في الطلب وكنتُ لا ألبي إلا على مضض. كلما دعوتني إلى جولة لقضاء وقت على شاطئ البحر مضيت معكِ "يهوديًا سيق ليسلم كرهًا". الرمال الذهبية دقتها أمواج البحر حتى غدت أرق من كل رقيق وصقلت حباتها فعكست بريق الشمس، حتى أبى البحر إلا أن يتخذها حول نحره عقدًا ذهبيًا ذا بريق تحت أشعة الشمس يغريك كما يغري الحسناوات، ويستهوي الغواني والغيد، فتراك تستمتعين بالمشهد، قبل أن تتجردي من كل حياء وتتجردي من لباسك إلا من قطعتين صغيرتين لا تستران غير عورة العورة، وتستسلمين مضطجعة لنعومة الرمال، تبيحين لشعاع الشمس الاستمتاع بنعومة بشرتك، حتى إذا نالت منه ونال منها، قمت متجهة نحو الماء وقد طال انتظاره وعيل صبره حتى حملته الرغبة على الزحف نحوك في رقة مويجات تنكسر ضعفًا أمام قدميك. ثم تستجمع قواها من جديد فتعيد الكرة لتلقى نفس المصير. في إياب وذهاب، في إقبال وإدبار، دون عياء ولا ملل وكأنها تدعوك لتستعذبي دغدغة ملوحتها وتتمتع في المقابل برقة بشرتك. فتجتاحني غيرة لما أخالها موجًا يتودد إليك ويحاول أن يبعدك مني... وتعودين لتجلسي أو تتمددي،

وقطرات الماء في صراع أو حرب، جسمك مسرحها، حتى إذا وهت قواها من فرط المصارعة وانصهرت الواحدة تلو الأخرى في بعضها، وجدت أشعة الشمس الساحة مهيئة لتبسط نفوذها حتى يذهب لون البشرة، وأنا أشاهد ينفطر قلبي غيرة من شدة التنافس عليك، لم يعد التنافس عليك وقفًا على الرجال الذين يغدون ويروحون، أو يمشون ورقابهم تشكو ألمًا من فرط الالتواء، والعينان لا ترفع عنك رغم أن الجسد ابتعد مسافة طويلة. بل أصبحت أخاف علي من الغيرة من الطبيعة من حولك، ألم تري كيف تنساب قطرات الماء على جسمك، تتحول إلى حبات لؤلؤ، أو ليست نعومة بشرتك هي من فعلت بها ما فعلت؟ وكيف يتودد شعاع الشمس، وكيف يختفي ويتحايل حتى يتسلل ليلامس رقة بشرتك فيكرمها بلون ذهبي جذاب، وأراني وقد هزتني رعشة غيرة ورحت أحمل سيف منشفتي أسحبه على جسمك، وأنا أنظر شزرًا إلى شعاع الشمس وإلى ماء البحر. لا تفارقني غيرتي حتى يزحف جيش حام مسلطًا سيفه على رقاب الأشعة لتنسحب ذليلة تجر وراءها أذيال خيبتها.

فجأة حولت الجنة كومة من رماد. سلطت نار الهجر على حدائق الوصال أحرقت كل زهر وشهد بفحيح العذاب، ملأ الدخان الأجواء فاختنقت الألفة. كير الذكريات ينفخ، يلهب القلب يجرعه ما كان من أويقات الهناء حنظلاً مُرَ المذاق، ومن حوله

ضاق الكون عن فحيح الزفرات. خرَّ الهوى صريعًا وحول معصميه أغلال وأشجان وآهات، وسيق ذليلاً لاهثًا خلف فتات رضاك، بعد أن كان أميرًا، ونجم سماك، عزيز المقام يتربع عرش هواك. وتحت وقع الطعن تشظت روحي بين أركان الأرض حتى ما عاد بالإمكان تجميع الأجزاء.

هكذا أسر القلب، يقضي العقوبة عبدًا يدين بهواك، حكمت عليه دون مقاضاة، لمقصلة الجور أسلمت منه الرقبة قطعت أوردة الحب وشريان الأشواق، حقيرًا سقته لمحرقة الهوى؛ بل جررته جيفة تلقطه الغربان وتنهشه الضباع. لكن غاب عنك بل غيبت، لا بل حجبت عنك أنانيتك، أن دماء الحب زكية احتضنتها تربة الأرض؛ فأينعت، والرماد استحال غمامًا زخاته ترثي ضحية الجور، تسقي أجنحة الهوى، تحقن الوريد دماءً جديدة يصير نغم قيثارة الطبيعة يعزفه نور الشمس، وإيقاعًا ترقص عليه احتفاء أمواج البحر.

هكذا ركبتِ عنادك، وظلمًا خاصمتني، خصامًا ليس كسابق الخصومات، ضعضع أوزان القصيد، فطر القلب حتى أصيب نبضه بالحران ورماه في جحيم الألم والعذاب، حتى شككت في أمري؛ أ واقعٌ ما أنا فيه، أم هو وهمٌ وكابوسٌ منه بعد لن استفيق؟ أم صنع خطب زمان، أم عثرة حظ، أم ضربة نحس أصابت قلبًا علاه الشيب من فرط قراع الخطوب وعينًا عورت

من فرط إدماع؟ أكان ما عشته من صفو الليالي لحظة تائهة من عمر الزمان، تراقصت فيها أجنحة الفراش، وزقزق الطير جذلان على الأفنان نشوان؟ لحظة سرعان ما ارتطمت على جدار قلب صفيق، فخرت تحت جلمود الهجر؟ أم احترقت في لظى البعد؟ أم تاهت في النفق المظلم؟ أم كانت حبًّا ذوى في ظلمة الرحم؟

أراكِ وقد استبدت بك نوبتك الهستيرية، فيحول حالك، بدرجة عدد أيام السنة، من معجمك انسحب حقل الحب وارتدت مطرقة كل عبارات الود، ليشيع في خطابك ألفاظ التنكر والصد، تنمو لتعانق قاموس الانتقام والقتل، وتفتين في الأمر ليصبح حلالاً عليكِ شنق شوقي. والحالة ذي، تحول الزغاريد نحيبًا والتغريد عويلاً وتصم طبول الحب، وتعقل خيول الود. ووقع السوط أقسى من طعن المدى على يسار الصدر. والقلب موثق إلى أعمدة النوى، فقيد الكرى، وعلى الرقبة نير يحرمني الماء والهواء، والعناء أمر من مرق الدفلى، والحب عقد جمار على صدري تدلى. تنسين الود، تخونين العهد، تنظرين الشزر، تمدين قنوات العذاب عبر شرايين الأيام، تشيعين جنازة نومي، تحتفلين مزهوة بميلاد سهادي وتوأمه الأرق. أقضي الليل والنهار منتظرًا عبثًا إطلالة شمسي، فألتمس بصيص ضوء أو شع نور في بنت الدنان، تؤنس وحدتي وتذهب عني حزني،

عبرها غائبة أسامرك، أبيت أناجيك، وأنا أرصف العبوات أكلمها وتكلمني برقيق العبارات، وعليها من البرودة عرق قطرات ندى تجلل أوراق الرند، كلما افتضت سمعت لها تنفس المستريح، كلما فتحت ثغرها تمده نحوي اصاعد منه نفس البرودة جسمه دخان سجائر وروحه طيب مسك مدغم في رضاب عذراء. تخدير طب أصاب لساني، من خلف الشعرى تسمعه ينادي الحبيب، رجع صدى من أعماق آبار. أما العينان فعن كل ما حولها تعمى إلا صورة الغائب وطيف الحبيب فتظل شاخصة تدعوني.

• • • •

(١٩)

هزني الشوق إلى قضاء بعض أيام الصيف الحارة على الشاطئ، استبعدتُ من وجهتي شاطئ "السعيدية" الجوهرة الزرقاء، ولما كنت أفضل على المحيط الأطلسي؛ الأبيض المتوسط، لما للثاني في تقديري الخاص من مزايا كهدوء البحر وسكونه بالمقارنة مع الأول؛ نزلت في مدينة شمالية شاطئية صغيرة، اتخذت من المرتفع مربضًا لها، عالية الرأس تعبر عن شموخها، ومن الناحية الغربية تمتد مساحات من الحدائق الغناء تنتهي إلى حقول تتلون بألوان الفصول. وعلى المرتفع المقابل ناحية الشرق غابة خضراء تطل على بحر ترعاه، وتراقب شغب أمواجه. يمر بها، بمحاذاة الجبل عبر فج شقته الآلات الحديثة، طريقًا واسعًا. ما أن يبلغ الزائر أعلى المرتفع حتى ينساب بصره يستمتع بمناظر تخلب اللب، فيجد نفسه قد توقف يتملى بروعة المكان. و ما أن يبلغ السفح حتى يلوح له الشاطئ ممتدًا لا يرى له لون رمل بل كله ألوان شمسيات، يخيل إليه أن لا مكان له. عني بها في السنوات الأخيرة كباقي أنحاء البلاد عناية جعلتها غاية في السحر والجمال، مع بساطتها أصبحت قطعة من الجنة، تلبس أعطاف شوارعها حُللاً بهية من الورود والأزهار، تقع في مرتفع يطل على زرقة الماء

المنعكسة على صفحة سمائها، حركتها دائبة ؛ خلال النهار يعج شاطئها الضيق بالمصطافين وأثناء الليل تتسع ساحاتها الجميلة للسهرات والأنشطة الرياضية والثقافية. والجميل موقعها القريب من شواطئ أخرى ومدن أخرى لا تقل عنها روعة. فمن مدينة المضيق تتجه جنوبًا إلى شواطئ "الرأس الأسود" و"مارتيل" إلى الطبيعة الجبلية الخلابة في اتجاه "وادي لاو"، وشمالاً تمد الشواطئ على طول المسافة إلى غاية مدينة "الفنيدق" وإذا كانت تستهويك المناظر الجبلية المطلة على البحر فتمتد إلى غاية عروس الشمال "طنجة" مرورًا بالقصر الصغير.

عنَّ لي يومًا أن أقوم بزيارة لميناء طنجة المتوسطي؛ وكنت لم أزره من قبل. الساحة الكبيرة الواسعة؛ موقف السيارات المملوءة عن آخرها، وقاعة المسافرين يقعان في علو يسمح بالنظر إلى الميناء من فوق. اضطررت إلى إيقاف عربتي على حافة الطريق الرئيسي على بعد مسافة، بحكم موقع الميناء محاذيًا للجبل والطريق شُق على مستوى ارتفاع عال، غدا منظره يستهوي المارة، والناس على طول الطريق يقفون يمسكون بالحواجز يتمتعون بمشاهدة البحر والبواخر والآلات. لا شيء يحجب الرؤيا. يكاد بصر الناظر يحيط بكل الميناء، وخلف الأفق البعيد تعج المدن الشمالية بالحياة.

وأنا أمسك بعارضة الحاجز العلوية وأضع قدمي اليسرى على العارضة السفلى، أنظر إلى حركة بارجة وهي تدخل إلى الميناء محدثة نفيرًا، سمعت صوتًا كأنه عائد من الماضي يصدر من إحداهن، وهي تقول: امسكي بيدي. دون أن أحول بصري أبرقت للشيطان (لعنة). وبعد لحظة التفتُ أنظر من حولي، وأقول في نفسي: لم لا؟ لم لا يكون صوتها؟

من بعيد وقع بصره عليها، يعرف مشيتها جيدًا، حركة رجلها اليمنى في نقلتها، طريقة حملها لحقيبة يدها، رغم نحول جسمها، وتغير في شكلها، وفي لباسها، تعرَّف عليها، انطلق نحوها لا يحفل بشيء، التفتت إلى الاتجاه المعاكس، ألم تره؟ مستحيل ألا تكون قد اشتمت رائحته، ناداها، أعاد الكرة، انتبه أنه من غير اللائق أن يستمر في المناداة، حث السير أكثر التفتت، ثم عادت تجر رجلها اليمنى قليلاً كما عهدها، لم يعد لديه أي شك، اقترب منها، همس اسمها، التفتت منخلعة، أفلتت الطفلة من يدها، تسمرت في مكانها، لم ترتمِ في حضنه كما تبادر إلى ذهنه في لحظة التفاتها. انغرس مذهولاً وهو ينظر في وجهها وكله انفعال، تفصل بينهما مسافة متر تزيد أو تنقص قليلاً، لاهي أقبلت عليه ولا هو دنا منها أكثر، لم يسعفه لسانه، سيضمها إلى صدره كطفل عثر على أمه بعد غياب، يلتصق بها، لا يستطيع فصل جسمه الصغير عن حضنها. يستفيق من

سهوه ليرسل برقية أخرى إلى الشيطان. أحس ببرودة اللقاء، مدت نحوه يدها، وهو ينظر إلى حركتها تمتد نحو يده، لم يكن يفكر إلا في بالتطويق بالذراعين، مرَّ وقت على أن يمد يده، ما أن صافحته حتى سحبت يدها، وسرعان ما حملته الذكرى إلى كيف كانت ترفض الانسحاب من الحضن. لم تكن حالته تسعفه لطرح سؤال، مضطرب، وزاده اضطرابًا تأرجحه بين الرغبة والصد.... تصنع موقف غير الآبه. كل شيء فيه بيان في منتهى الفصاحة إلا لسان انعقد، لا يستطيع الكلام، رغم تلك الحمولة المتراكمة تحت وطأة ترسبات الشهور من الحرمان.. يحرك رأسه، يرفع يده إلى مستوى أذنه ثم يخفضها، في نوع من النرفزة، بقلبه شوق يضيع العقل، يشل تفكيره، تحت تأثير اصطدام لهيب شوقه ببرودة لقائها.

بدت عازمة.. مصممة.. مقتنعة.. غير نادمة على شيء، وكأنها تتحدث إلى رجل لم تربطها به أية صلة. لا زال لا يصدق، قد تفاجئه بعد لحظة، " لا، لن تفعل لا يمكن لأي مهما كان أن يتصنع ضبط نفسه بهذا الشكل، هل أنا غارق في حلم؟ ألا أُنعت بالجنون إذا أنا هويت على خدي بصفعتين متلاحقتين؟ يا رب تراني أهذي؟

هكذا انتابته سبحة لم تنتبه من قبل ليوقظه الصوت الذي تمنى غير ما مرة لو يسمعه فيسجله على قرص ليصغي إليه كلما

شده الحنين، أطالت النظر إليه، كأنها تتفحصه، وقسمات وجهها تعبر عن حالها وكأني بها فقدت النطق.

بصوت مبحوح لا يكاد يُسمع بادر قائلاً وكأنه لا يقوى على تجميع حروف الكلمة:

- الحمد لله أن كُتب لي أن أراك

- هذا ما شاءته لنا الأقدار

- أهي الأقدار من إن شاءت جمعت وإن شاءت فرقت، أم الأقدار التي إن شاءت فرقت وإن شاءت وصلت؟

خيم الصمت من جديد، وكأنهما غريبان لا يشتركان في أي جانب من جوانب الحياة. إلا أن بدر استطاع أن يكسر هذا الصمت بالسؤال الذي أرقه طيلة أربع سنوات:

- هل بإمكانك أن تدليني عن السبب الذي حدا بك إلى الاختفاء، رغم... ؟

وقاطعته:

- رجاء لا تكمل، إن لك علي هذا الحق، ولكن الأمر يتطلب بعض الوقت.

- لدي كل الوقت لأسمعك

- طيب، أنا أيضًا باخرتي لن تغادر إلا بعد ساعات، فوجئت بهذا التأخير عقب وصولي إلى الميناء.

- ليس كما فوجئتُ أنا باختفائك، وفوجئتُ قبل قليل؛ ولا زلت؛ برؤيتك، وها أنتِ تصعقينني بنبأ مغادرتك اليوم.

- سامحك الله، والآن من واجبي أن أطلعك على القصة، ورجاء لا تقاطعني !

- لا أملك إلا أن أصغي، أبلغيني ما بجعبتك يا شهرزاد !

" أحببتك كما لم أحب أحدًا في حياتي، وحبك لا زال يملأ قلبي وخوفي وخوفك أن يكون قد زاد على ما كان عليه في الماضي، لكن بعد كل ما حدث وجدتني غير جديرة به، ولذا أنزلتُني من حبك في درجة أدنى بكثير مما أنزلتني أنت منه. فما سببته لك من عذاب إلى حدود هذه اللحظة لا يغتفر، فكيف لي أن أطمع في حق فرطت فيه وأنت تذكر كيف همت بحبك، لا أنكر أنك أغدقت علي مشاعر حلمت بها تجسدت بيننا حتى صرت الفارس الذي لا يقهر، بنيتُ حولك سياجًا من الغيرة، لا أريد أن يراك أحد من جنس حواء، أكره كل من تسلم عليك ولو تلقي عليك التحية من بعيد، لا أطيق أن تلامس يدك يدها ولا أن تلتقي نظرتك بنظرتها. وأما إذا صدرت منك ابتسامة في وجهها فلا أعي ذاتي وقد فقدت صوابي. أتذكر الخامس من شهر مايو؟ فرغم كل ما كان يملأ قلبي من خالص حبك فذاك اليوم إذا كان بالنسبة لك لا يعني شيئًا أو تتمنى لو يمحى من التقويم؛ فبالنسبة لي يوم اثبت لي حبك، ومدى اهتمامك بهذا الحب ومن حينها أخذ يكبر يومًا عن يوم، أصبحت في فترة وجيزة مدار

حياتي، محورها وقطب رحاها، لا يمكن أن يخطر ببالي أمر دون أن تكون حاضرا لأتخذ قراري على ضوء مراعاة إرضائك وعدم إزعاجك. رغم كل ما تعرف عن أنانيتي لم أكن أتساهل معها حتى تُملي علي ما قد يقلقك. إلا أن ما تجهله تمام الجهل، ولم أشأ أن تعلمه يومًا هي ظروف خاصة قاسية لم ترحم ضعفي، عملت كل ما في وسعي لتسخيرها لصالح علاقتنا ولم يكن في استطاعتي أن أجعلك تقاسمنيها لأني لم أكن أريد أن يصيب حبنا ولو خدش بسيط.

والظرف في اعتقادي حينذاك باعتبار الاتفاق المبرم بيننا نحن أطراف المشكل كان محسومًا كمبدأ وتعاقد أخلاقي بين أطراف متحضرين، لم أكن أنتظر غير انتهاء الإجراءات الإدارية التي لم تبدأ أو بعبارة أوضح كان يحاك ضدي مقلب وأنا أستمتع بحبي معك. ظرف التف حول حبي، فعل أخطبوط بفريسته، امتص دماءها، ظرف كلفني حب حياتي أصبحت حياتي جحيمًا، لا أطيق نفسي. بقدر ما أتصور عذابك تتضاعف عذاباتي، لا أملك إلا حول حرمة أرغمها محيطها فاستسلمت مرغمة، لقدرها، ولبها، وجوارحها لا يفارقها طيف حبيبها. يعلم الله كيف يحملني الشوق، كم يؤرقني، ولا أملك وسيلة غير الإجهاش، بقدر ما أرغمت على العيش بعيدًا عنك زاد ضعفي. لما فات الأوان أدركت خطأي، إذ لم استعن بك مهما كانت النتائج. كان النزر القليل مما تبقى لدي من سداد تفكير يشير

علي بتجنيبك المعاناة.. بتخفيف معاناتك، إذ تهيأ لي أن هجرك أرحم لي من أن تُصدم بواقع يغير نظرتك إلي، ويشوه صورتي في عينك. والأيام تمضي، وضعفي يزداد تفاقمًا، وموقفي من ذاتي يسقيني علقمًا، حتى صرت لا أطيقني، لا أتحملني، أتمنى لو غادرت هذا الوجود، إذ لم يعد له طعم، كل شيء من حولي جحيم، ذكرانا لا تفارق خيالي، حولي أكثر ضعفًا من حول الميت إن شيء دفن، وإن شيء بيعت أعضاؤه، وإن شيء أُطعم للكلاب. لا فرق عندي لا أكترث، كل ما أتقنه هو حقدي على نفسي جراء إضاعتي حب حياتي، حب ما عرفه في تقديري الخاص اثنان قبلنا نتيجة لغبائي.

كان من المفروض أن أدافع عن حبي ضد كل من وما وقف في طريقه، كان علي متابعة إجراءات الطلاق بنفسي ولا أثق في أي كان".

ـ لحظة من فضلك، أكنتِ متزوجة ؟ أكنتِ تخونين زوجك معي؟

ـ هون عنك واسمع الحكاية حتى أخرها، ألم نتفق على ألا تقاطعني؟

" تصرفات خرقاء.. أتيتها، كنت متهورة، تعاملت بسذاجة، أوكلت رعي غنمي للذئب. يقتلني ندمي، لا ليس ندمًا، بل نبال.. سهام وسيوف، أنى وليت وجهي تصيبه نصالها. لم أشرك توأم روحي، كان علي ذلك، ولا يهم موقفه بعد ذلك، الأكيد أنه لم

يكن يسمح لنفسه أن يتخلى عني في ذلك الموقف. لقد ارتكبت في حقه خطأين، الأول لمَّا لم أطلعه على علاقتي بـ"وداع" والثاني لما هجرته دون أن أخلف أثرًا. وهذا ما سيعجل ساعة فقداني لصوابي. بقيت على تلك الحال، أفضل الوحدة لا أكلم أحدًا، أضرب على الطعام، أعاقب حالي، أعذب بعذابي كل من حولي بما فيهم من عذبني ولن أتوقف يومًا عن تعذيبه حرمته كل ما كان يحلم به، لم أعطه فرصة الفرح بشفائه كما يدعي حولت حياته إلى جحيم عن طريق جحيم حياتي، سواء أثناء فترة مرضي الطويلة، أو فترة نقاهتي التي يبدو أنها ستطول أكثر وقد تدوم إلى الأبد".

- عمن تتحدثين؟ ضعيني في الصورة من فضلك؟ أكنت متزوجة قبل أن أتعرف إليك؟ وما سبب هجرك؟

- "أتحدث عن "وداع" المقاول ابن أكبر مقاول في البلد، خُطبت له قبل أن أعرفك، واكتشفت عجزه قبل الزواج لكن لسوء حظك وحظي وحسن حظه كنا متزوجين على الورق. اتفقنا على الطلاق، وطلب مني أن يرفع هو الطلب، ويتابع كل الإجراءات، حتى لا يفتضح أمر عجزه بين الناس، ولنفس الغاية رجاني أن لا أتدخل حتى أتوصل برسالة الطلاق. اعتبرت نفسي حرة طليقة، وحدث ما حدث بيني وبينك. ويوم آخر لقاء كان لنا معًا توصلت برسالة من مصالح قضاء الأسرة، اعتقدت أنها رسالة طلاق كما وعدني، لم أطلع على

محتواها (خطأ الثقة البلهاء) وعنَّ لي حينها أن أهاتفك وأقص عليك حكاية علاقتي بوداع، إلا أنني فضلت أن أرجئ ذلك إلى حين لقائنا، ولم أفتح الظرف إلا بعد أيام، هاتفت "وداع" لأشكره على وفائه بعهده، وأخذ يحدثني عن يوم الزفاف.

أحستْ بتعب شديد مباغت، أمسكت بأبي سلام، ساعدها على الاتكاء على أحد الأعمدة الكهربائية، أحضر لها بعض الماء، وأخرج محارم ورقية وناولها إياها بعد أن مسح العرق من على جبينها بإحداها، إحساس حملها إلى الماضي دون أن يكون له كبير أثر على الحاضر. هاله وضعها الصحي، رقَّ لحالها وكأن هو الآخر أحس بالذنب تجاه ما آل إليه حالها. كيف فاته أن يحدثها عن ماضيه، ويطلع على ماضيها، لو كان قد توجه إليها بسؤال بسيط عن ماضيها العاطفي. ويعود مدافعًا عن براءته من أي ذنب

ـ قضيت العمر أحلم بعودة توأم روحي ألقاه صدفة ليخبرني بزواجه من غيري، وأد سلام بعد أن اغتال والديه معًا، قتل الحلم، نسف عالمنا الخاص الذي بنيناه معًا. قضيت العمر على ذكراه، في الوقت الذي كانت تستدفئ بحضن غيري، بل أثمر هذا الدفء طفلة، كان من المفروض أن تكون حلمنا، أن تكون سلام. وها أنا واقف أمام شبح لا علاقة بحبيبي أنا أمام شخص ثانٍ تمامًا.

مرَّت طفلة تنادي: ماما، وتنط، كانت ضعيفة البنية، شاحبة اللون وكأنها تعاني من علة، في حركاتها ليونة لا تتماشى وحيوية الأطفال في مثل سنها. نظر إلى الطفلة وهي تلبس فستانًا قصيرًا بألوان الربيع على رقعة بيضاء، وقد ضفر شعرها من جهتين شدتا بربطتين حمراوين في شكل فراشة وبرجليها حذاء أحمر وجوارب بيضاء تكاد تصل إلى حدود الركبتين، في أعلاها ثلاث حلقات حمراء. ثم ما لبثت أن عادت، وقفت لحظة تنظر إلى أمها وإلى الرجل الواقف يتحدث إليها. وكأنها تسألها عن هويته.

نظر بدر لسلاف وقد انتابه إحساس غريب دون أن يعرف مصدره، ولا سببه، وبعينيه قرأت سلاف سؤاله، أطرقت. لم ينبس بكلمة، رفعت بصرها، لاحقها بصره، يسال عينيها دون أن يدري أن سلاف في هذه اللحظة تهرب من الطوق، من الحصار، الذي فرضه عليها هذا الموقف، تغالب حرقة كتمان سر، ما استطاعت له إضمارًا، قد تفشيه من لحظة إلى أخرى، اضطراب غيب فرحة باللقاء، شعور به وشت العين، وخطه لون أصفر على صفحة الوجه، اضطراب شنيع يجتاحها من أعلى الرأس إلى أخمص القدم.

سرعان ما انصرف ذهن بدر عن السؤال، وهو يفكر في الموقف. و حتى لما اختفت لم يؤمن قط بل لم يتبادر إلى ذهنه

لحظة أن يعيش هذا الموقف. لم يستعد لمثل ذي المواقف، لم يألفها، ما سبق أن وجد نفسه فيها. استحال اللهيب لهيبين: لهيب شوق تليد براه بري قلم، ولهيب مفاجئ وقوده برودة لقاء أطار صوابه وإحساس رهيب بالأبوة. صعب عليه والحالة هذه أن يسيطر على انفعالاته، كما عزَّ عليه أن يبدو منكسرًا، وهي لا تبدو على ما يعرفها عليه من ثبات في مواقف اللقاء.

حمد الله في سره لما نبست، فاجأه:

ـ أين أنت؟ أين أنت؟

تغيرٌ كبيرٌ طرأ على صوتها، صوت مرتعبة ترتعش، بدا وكأن به اهتزازات أو تموجات، أما بدر فلقد انتابته حالة لم يشهد لها مثيلة في حياته، حالة من الهيجان النفسي، يكاد صدره ينفجر، يحس بضيق في التنفس، جبينه أخذ يندى ويعرق. بصوت صاحب حق نادى وسأل:

ـ سلاف عمن تبحثين ؟!!! أتكون الطفلة... ؟!! لا..

سمعت السؤال ولم تجب، وما درى أهو تغاضي منها أم انشغال عن الجواب بالتفكير في الطفلة. وهي تلتفت يمينًا وشمالاً، وفجأة صاحت بكل قواها:

سلالالالالالالالالالالالالالالالالام..!!!!.

ببببببببببببببببببببببببدر.. !!!!!

التفت في ذهول شديد، شلت حركة قدميه، وقبل أن يقع بصره على الفتاة سمع صرير العجلات، ينبعث من الطريق؛ عجلات شاحنة تحتك على القار، فرملة على حين غرة، لم تحل دون صدم الطفلة التي ارتمت بعيدًا أمام الشاحنة على الجهة اليمنى تحت أنظار الحاضرين...

❖ ❖ ❖

تمت

المؤلف في سطور

- عيسى أحمد حموتي أوري
- شاعر وقاص مغربي من مواليد مدينة وجدة، عام ١٩٥٥م
- حاصل على الإجازة في اللغة العربية وآدابها من جامعة محمد الأول، وجدة – المغرب
- نشرت قصائده وأعماله القصصية في العديد من الصحف والمجلات

- الإصدارات :

- تضاريس القلق : شعر.
مطبعة الجسور، وجدة – المغرب، ٢٠١٠م

- التحدي : مجموعة قصصية

- أوريات " أو مجنون بنت الريف" : شعر
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١١م

- أولاد القايد : مجموعة قصصية
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٢م

- الهجرة المعكوسة : رواية.
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٢م

- أم سلام : رواية.
شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٣م

- البريد الإلكتروني: aissa.hamouti@gmail.com